

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
مكة المكرمة



الأبحاث المقدمة إلى الندوة الكبرى

المقامة بمناسبة اختيار

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ

المنعقدة في رحاب جامعة أم القرى بمكة المكرمة

خلال الفترة من ١٣– ١٥/٨/١٤٢٦هـ

الموافق ١٧– ١٩/٩/٢٠٠٥م

المحور الخامس

(النشاط الاقتصادي والأوقاف وأثرها في المجتمع المكّي)



محتويات المحور الخامس

النشاط الاقتصادي والأوقاف وأثرها في المجتمع المكي

المحور الخامس

النشاط الاقتصادي والأوقاف

وأثرها في المجتمع المكي





الصرة المرسلة لأهالي مكة المكرمة عام ١٠٧٨هـ

بموجب الدفتر رقم ١٣٢ من دفاتر الصرة في الأرشيف العثماني

د. سهيل صابان

مكتبة الملك فهد الوطنية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

يتناول هذا البحث الإرسالية المالية المعروفة بالصرة السلطانية إلى أهالي مكة المكرمة عام ١٠٧٨هـ بموجب دفتر الصرة ١٣٢ من مجموع دفاتر الصرة الخاصة بأهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف، والتي وصل عددها في الأرشيف العثماني إلى ٤١٧٠ دفتراً للفترة من عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م وحتى عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م بشكل متسلسل، ما عدا أربع سنوات.

قسمت الأسماء الواردة في الدفتر إلى أربع وثلاثين قسماً، تضمن كل قسم منها أسماء أصحابه المخصص لهم الصرة ضمن فئتهم، بدءاً من فئة قاضي مكة المكرمة وأئمة المذاهب الأربعة فيها، وبعض أعيان مكة المكرمة وأشرافها، وانتهاءً بفئة آغاوات الحرم المكي الشريف إضافة إلى الجماعات الأخرى، مثل جماعة سقاة زمزم أثناء غسل الكعبة المشرفة، ومصروفات زيت القناديل التي توقد بين الصفا والمروة، وكثير من الوظائف الأخرى، والمخصصات غير محددة الصرف التي تركت مفتوحة لأهالي مكة المكرمة، والتي خصصت لها مبالغ من أموال وأوقاف الأسرة العثمانية الحاكمة وبعض الوزراء وكبار رجال الدولة العثمانية في إستانبول.

ولأجل استمرار تلك العطاءات لأهالي الحرمين الشريفين بشكل عام، لم يكتف الواقفون بإرسال الأموال إلى هذه البقعة المقدسة مرة أو مرات عدة؛ بل أوقفوا لها أوقافاً كثيرة في أنحاء مترامية من الأناضول وغيرها من أراضي الدولة العثمانية؛ للتأكيد على استمرار تلك العطاءات السخية إلى ما شاء الله تعالى. ولأجل

تنظيم تلك الأوقاف، وإرسال تلك العطاءات والأموال، وتوفير حاجيات الحرمين الشريفين، أنشئت في إستانبول نظارة خاصة، سميت بنظارة أوقاف الحرمين الشريفين.

وعلى الرغم من أن هذا الدفتر خاص بالأموال التي وزعت على أهالي مكة المكرمة عام ١٠٧٨هـ، فإنه تضمن الكثير من المعلومات عن بيت الله الحرام، والوظائف الموجودة فيه، والفئات العاملة في خدمته، كما احتوى على معلومات كثيرة عن المجتمع المكي، وردت تلك المعلومات عرضاً ضمن الأسماء المدرجة في الدفتر.

دفاتر الصرة في الأرشيف العثماني :

الصرة [١] تعني كيس النقود. واصطلاحاً تطلق على الأموال ومختلف الهدايا التي كان السلاطين العثمانيون يرسلونها إلى أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف. وكانت قافلة الصرة تخرج من إستانبول في شهر رجب من كل سنة، باحتفال رسمي، وتصل في بداية شهر ذي الحجة إلى مكة المكرمة. فيتم توزيع تلك الأموال والهدايا على أهالي الحرمين الشريفين بمعرفة أمين الصرة وقاضي مكة المكرمة وشيخ الحرم، بدءاً من الأعيان والأشراف وانتهاءً بالفقراء والمساكين. ويبدو أن إرسال الأموال إلى الحرمين الشريفين قد بدأ في العهد العباسي، واستمر في عهد الفاطميين والأيوبيين والمماليك، واتخذت شكلاً نظامياً خصصت لها مؤسسة

١ حول تعريف مفصل بالصرة، والصرة في عهد السلطان سليم وابنه السلطان سليمان القانوني انظر:
Osmanli Devletinde Surre-i Humayun ve Surre Alaylari/Munir Atalar.- Ankara: DIB, ١٩٩١.p. ١-١٩

خاصة في عهد العثمانيين، وتعلق بها كثير من الوظائف، مثل قافلة الصرة التي ضمت كثيراً من الموظفين المتخصصين في شؤون الصرة. ونشأ من ذلك كثير من المصطلحات الخاصة بالصرة في الدولة العثمانية.[١] وأقدم دفتر للصرة في الأرشيف العثماني يعود لعام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م. وبدءاً من هذا التاريخ، فإن الأرشيف العثماني يضم دفاتر الصرة بشكل متسلسل حتى عام ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ما عدا سنوات: ١١١٢هـ، و ١٢٢٤هـ، و ١٢٢٥هـ، و ١٢٢٦هـ، و ١٢٢٧هـ. وفي الفترة الأولى كانت دفاتر صرة مكة المكرمة والمدينة المنورة موحدة، ثم أصبحت دفاتر كل منهما مستقلة. وفي السنوات الأخيرة أصبحت من جديد دفاتر موحدة. ويضم أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول المعروف بالأرشيف العثماني ٤١٧٠ دفتراً من دفاتر الصرة تحت رقم تصنيفي عام ٩٦٣.[٢]

التعريف بالدفتر رقم ١٣٢ من دفاتر صرة أهالي مكة المكرمة

يقع هذا الدفتر – المحفوظ في الأرشيف العثماني تحت تصنيف ١٣٢ EV.HMK.SR. – في خمسين ورقة متقابلة، أي مائة صفحة في المصطلح الدارج في الوقت الراهن، مقاس (٤١x١٣ سم). ويضم كل صفحة للورقة الواحدة واحداً وعشرين اسماً (ثلاثة أعمدة، في كل عمود سبعة أسماء). وأدرجت الأسماء بدءاً من الورقة الرابعة. وأول عبارة بدئ بها الدفتر هي: الصرة الشريفة السلطانية الرومية الجديدة الواجبة، المرسلة لأهالي مكة المكرمة في سنة ثمان وسبعين وألف.

١ حول هذه المصطلحات بشيء من التفصيل انظر المرجع السابق. ص ٢٠٧ وما بعدها.

٢ Basbakanlik Osmanli Arsivi Rehberi.-Istanbul: Osmanli Arsivleri Daire Baskanligi, ٢٠٠٠. p. ٢٤٤

وأخرها في الورقة الخمسين: "قُسم ما حواه بين أصحابه وقوبل كل طالب بطلابه، وأنا الفقير السيد عبد الله، القاضي بمكة المكرمة، أكرمه ربه ونعمه". وتضمن الدفتر ختمه الحاوي اسمه "عبد الله بن محمد". ثم عبارة: "قُسم ووزع ما فيه بمعرفة العبد الفقير محمد، مير اللواء شيخ الحرم بمكة المشرفة وحاكم جدة". وتضمن ختمه المحتوي على اسمه: "محمد باشا".

وقد قسم الدفتر إلى عدة أقسام، تم جمع كل فئة من الفئات التي سميت بالجماعات في حيز واحد متتابع الصفحات على النحو الآتي:

١ – ضم قاضي مكة المكرمة وأئمة المذاهب الأربعة فيها ماعدا إمام المذهب الشافعي، كما حوى بعض أعيان مكة المكرمة وأشرافها. وقد بلغ مجموع الأسماء الواردة في هذا القسم – مع دمج الأولاد والبنات فيها: أي عدهم اسماً واحداً – ثلاثمائة وتسعة عشر اسماً. وبلغ مجموع مخصصاتهم من الصرة المدفوع إليهم أربعة آلاف وستمائة وثمان وثمانين سكة حسنة[1] من الذهب. وقد حسبها الباحث

[1] السكة: الاسم الذي أطلق على النقد المعدني – سواء أكان من الذهب أو الفضة أو غيرهما –، والذي كان تحت الضمان بالدمغة الرسمية للدولة. والسكة الحسنة مصطلح استخدم بدلاً من النقود.؛ إذ إن السكة في الدولة العثمانية كانت تستخدمين بنوعين. الأول: دمغة، والثاني: بدل نقد. فإذا قصد النقد بشكل مباشر كان يسمى سكة حسنة.

Osmanli Tarih Deyimleri ve Terimleri Sozlugu/M.Zeki Pakalin.- Istanbul:MEB, ١٩٤٦.:٢/٢١٤, ٢٢٠

والسكة المخصصة هنا لأهالي مكة المكرمة هي من الذهب. كما يفيد بذلك القيد الموجود على اسم مريم بنت الشيخ أبو السعود بن عبد الله بن حجر، المشار إليها سابقاً.

فوجد أنها تتجاوز خمسة آلاف سكة ذهبية حسنة.[1]

٢ — جماعة تكية كلتنية[2] وخدامها. وبلغ عددهم واحداً وعشرين اسماً. وقد بلغ مجموع مخصصاتهم ستاً وتسعين سكة حسنة. وحسبها الباحث فوجد أنها تبلغ مائة وإحدى وثلاثين سكة ذهبية ونصف.[3]

٣ — جماعة السادة والأشراف. وعددهم ثلاثة وثلاثين اسماً. وقد بلغ مجموع مخصصاتهم ثلاثمائة وخمساً وثلاثين سكة حسنة من الذهب.[4]

٤ — جماعة الأروام[5] المجاورين ببلد الله الحرام، أي القادمين من بلاد الروم. وبلغ عددهم أربعاً وتسعين اسماً. ووصل مجموع مخصصاتهم ألفاً وتسعمائة وأربعاً وعشرين سكة حسنة من الذهب.[6]

٥ — جماعة الأعاجم المجاورين ببلد الله الأمين. وبلغ عددهم

---

١ الصفحة ٤/أ — ١١/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ كلتنية: كلمة مصحّفة، والصحيح الذي بدا للباحث هي كلشنية، نسبة إلى طريقة الكلشنية، المتفرعة من الطريقة الخلوتية. ويؤيد ذلك ما ذكره شمللي زاده أحمد أفندي في كتابه "شيوء طريقة كلشنية": أن لهذه الطريقة فرعاً في مكة المكرمة في القرن السادس عشر الميلادي الموافق للقرن الحادي عشر الهجري. فالتكية الموجودة إذن لهذه الطريقة. انظر:

Gulseniyye/Mustafa Kara [Islam Ansiklopedisi/Turkiye Diyanet Vakfi.Istanbul: ١٩٩٦: ١٤/٢٥٦-٢٥٩].

٣ الصفحة ١١/ب — ١٢/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٤ الصفحة ١٢/أ — ١٣/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ يقصد بالأروام: المجاورون القادمون من بلاد الروم، سواء من إستانبول، أو من منطقة البلقان أو من بعض مناطق الأناضول.

٦ الصفحة ١٣/أ — ١٥/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

مائة وثلاثة أسماء. وبلغ مجموع مخصصاتهم ألفاً ومائتين وواحدة وثمانين سكة ذهبية ونصف.[١]

٦ - جماعة عن بقية الخطباء والأئمة. وهم شخصان، وبلغت مخصصاتهما تسع سكك حسنة من الذهب.[٢]

٧ - جماعة خدام مُدرَّجات[٣] البيت الشريف. وهم شخصان من آل شيبي، كما يبدو. وبلغت مخصصاتهما أربعاً وعشرين سكة حسنة من الذهب.[٤]

٨ - بقية خدام الحرم. وهم خمسة أشخاص. وبلغ مجموع مخصصاتهم تسع سكك حسنة مع زيادة سبع وعشرين سكة حسنة من الذهب، ليصبح المجموع ستاً وثلاثين سكة.[٥]

٩ - جماعة قراء المحفل الشريف في الحرم المحترم. وهم أربعة أشخاص. وبلغ مجموع مخصصاتهم اثنتي عشر سكة حسن من الذهب.[٦]

١٠ - جماعة المؤذنين بمآذن الحرم الشريف. وهم أربعة عشر شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم سبعاً وأربعين سكة، مع زيادة أربع وعشرين سكة حسنة من الذهب، ليصبح المجموع إحدى وسبعين

١ الصفحة ١٥/ب - ١٧/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ١٧/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ أي المسؤولين عن سُلَّم البيت الشريف أثناء فتح بابه للصعود إلى داخليه؛ لغسله وتنظيفه في الموسم المعتاد القيام به.

٤ الصفحة ١٨/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ الصفحة ١٨/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٦ الصفحة ١٨/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

سكة.[١]

١١ – جماعة الفراشين بالحرم الشريف. وعددهم عشرة أشخاص. ومجموع مخصصاتهم عشرون سكة حسنة.[٢]

١٢ – جماعة الفراشين بالمقامات. وعددهم أربعة. وبلغ مجموع مخصصاتهم اثنتي عشر سكة حسنة من الذهب.[٣]

١٣ – جماعة الوقادين[٤] بالحرم الشريف. وعددهم سبعة أشخاص. وبلغ مجموع مخصصاتهم ثمان عشرة سكة حسنة من الذهب.[٥]

١٤ – جماعة البوابين بأبواب الحرم الشريف. وعددهم ستة عشر شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم سبعاً وأربعين سكة حسنة من الذهب.[٦]

١٥ – جماعة آغاوات الحرم[٧] الشريف. وعددهم ثلاثة عشر

١ الصفحة ١٨/أ – ١٨/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ١٨/ب – ١٩/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ١٩/أ – ١٩/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٤يقصد بالوقادين: المسؤولين عن إيقاد القناديل في الحرم إذا حل الليل.

٥ الصفحة ١٩/أ – ١٩/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٦ الصفحة ١٩/ب – ٢٠/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٧ آغا الحرم: هو المصطلح المستخدم في حق المخصي من الرجال العاملين في القصر السلطاني بإستانبول. ونظراً لأنهم كانوا يدخلون إلى قسم الحريم من القصر الممنوع دخول غير المحارم إليه، ويؤدون فيها الخدمات اللازمة إضافة إلى حراسته، فقد أطلق عليهم هذا اللقب. وكان معظمهم من الأفارقة، وعادة ما كانوا يُقدَّمون من ولاة مصر إلى القصر السلطاني في إستانبول. وقد أصبح هذا المصطلح يطلق فيما بعد على المخصيين من الرجال العاملين في الحرم الشريف بمكة المكرمة. وهناك العديد

شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم تسعاً وثلاثين سكة حسنة من الذهب.[١]

١٦ – جماعة مشدين[٢] مطاف الحرم الشريف. وعددهم عشرة أشخاص. وبلغ مجموع مخصصاتهم ثلاثين سكة حسنة من الذهب.[٣]

١٧ – جماعة مشدين أبواب الحرم الشريف. وعددهم واحداً وعشرين شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم ستاً وستين سكة حسنة من الذهب.[٤]

١٨ – الجماعة التي تقرأ أجزاء القرآن عند ضريح أبي نمي. وعددهم ثلاثة وثلاثون شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم مائة وخمس سكك حسنة من الذهب.[٥]

١٩ – جماعة الإمامين والمؤذنين لمسجد السلام بالطائف. وعددهم اثنان. وبلغ مخصصاتهم ثمان سكك مع زيادة عشرين سكة

من الوثائق لدى الباحث عن هؤلاء آغاوات الحرم في مكة المكرمة والمدينة المنورة، والشكاوى المرفوعة منهم إلى السلطان العثماني في مختلف التواريخ عن بعض حاجياتهم المالية ورواتبهم التي باتت تستغل من لدن الغير، ولا تدفع لهم. انظر: الأرشيف العثماني، تصنيف .I.MV. ١١١٣٧, I.DAH ١٥٢٦٨

١ الصفحة ٢٠/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ لم أجد للكلمة ذكراً فيما بحثت فيه من معاجم للغة العثمانية. ويبدو أنهم المسؤولين عن المطاف الشريف من حيث التنظيم والإشراف. والذي دفع الباحث إلى هذه القناعة ذكر "مشدي أبواب الحرم الشريف" في هذا الدفتر، بعد ذكر بوابي الحرم الشريف. وهذا يعني أنهم كانوا مشرفين على الأبواب. كما أن الأولين مشرفون على الطواف..

٣ الصفحة ٢٠/أ – ٢٠/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٤ الصفحة ٢٠/ب – ٢١/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ الصفحة ٢١/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

حسنة من الذهب.[١]

٢٠ – جماعة قراء سورة الفتح الحطيم الشريف. وعددهم تسعة أشخاص. وبلغ مجموع مخصصاتهم من الصرة سبعاً وعشرين سكة حسنة من الذهب.[٢]

٢١ – جماعة قراء المولد الشريف في شهر ربيع الأول في الحرم الشريف. وعددهم غير محدد. والمبلغ المخصص ست سكك من الذهب.[٣]

٢٢ – جماعة الذكر الحكيم بالحرم الشريف ليلة الجمعة. وعددهم غير محدد. ومخصصهم من الصرة إحدى وعشرون سكة.[٤]

٢٣ – جماعة عبيد عيون مكة المكرمة. وعددهم رجالاً سبع وخمسون شخصاً، ونساءً ثنتان وعشرون إمرأة. ومجموع مخصص الرجال من الصرة مائة وأربع عشرة سكة، ومجموع مخصص النساء ثنتان وعشرون سكة. ومجموعها مائة وست وثلاثين سكة.[٥]

٢٤ – جماعة عبيد عين خليص المبارك. وعددهم أربعة أشخاص. ومجموع مخصصهم تسع سكك من الذهب.[٦]

٢٥ – جماعة سكان الأربطة بمكة المكرمة. وقد ذكرت

---

١ الصفحة ٢١/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ٢١/أ – ٢١/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ٢١/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٤ الصفحة ٢١/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ الصفحة ٢١/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٦ الصفحة ٢٢/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

أعداد القاطنين في كل رباط ومجموع المبلغ المخصص لهم. فعلى سبيل المثال رباط الجودي الكائن بالمسجد الحرام يضم اثني عشر شخصاً، ومخصصهم ستاً وثلاثين سكة، ورباط الداودية ويضم أربعاً وأربعين نفراً ومخصصهم المالي من الصرة مائة واثنتان وثلاثون سكة. وقد عدّ الباحث تلك الأربطة فوجد أن عددها خمسة وعشرين رباطاً، ضم أربعمائة وتسعة وثمانين شخصاً، بلغ مجموع مخصصاتهم من الصرة ألفاً وأربعمائة وأربعاً وعشرين سكة. ويبدو أن متوسط نصيب الفرد الواحد كان ثلاث سكك.[1]

٢٦ – جماعة القراء لتلاوة أجزاء القرآن الكريم في الحرم عند الكعبة المعظمة على روح السلطان سليم خان. وقد بلغ عددهم أربعة وثلاثين اسماً، خصص لكل واحد منهم اثنتا عشرة سكة، ماعدا الأخير؛ حيث خصص له أربع سكك. وبلغ مجموع مخصصاتهم أربعمائة سكة حسنة من الذهب.[2]

٢٧ – جماعة قراء سورة الفتح وسورة الإخلاص في الحرم عند الكعبة المشرفة، على روح قاضي عسكر إستانبول عبد الرحمن أفندي. وقد بلغ عددهم سبعة أشخاص، ومجموع المبلغ المخصص لهم خمساً وعشرين سكة حسنة.[3]

٢٨ – جماعة قراء أجزاء القرآن الكريم على روح نشانجي محمد باشا عند الكعبة المشرفة. وعددهم سبعة عشر شخصاً، بلغ

١ الصفحة ٢٢/أ – ٢٢/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ٢٣/أ–٢٣/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ٢٤/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

مجموع مخصصاتهم من وقف المذكور في إستانبول مائة وستين اثنتين من السكك الحسنة.[١]

٢٩ – جماعة قراء أجزاء القرآن الكريم على روح والدة السلطان أحمد. وعددهم ثمانية أشخاص. ومجموع مخصصاتهم خمساً وثمانين سكة حسنة من الذهب.[٢]

٣٠ – جماعة قراء سورة الفاتحة مرة واحدة والإخلاص ثلاث مرات على روح والدة السلطان مراد عقب كل صلاة في مكة المكرمة. وعددهم أربعة وخمسون شخصاً. وبلغ مجموع مخصصاتهم ثلاثمائة وخمسين سكة حسنة من الذهب.[٣]

٣١ – جماعة قراء جزأين من القرآن الكريم في وقت الصبح والعصر من كل يوم. وعددهم ثمانية وعشرون شخصاً. ومخصصهم المالي مائتي سكة.[٤]

٣٢ – مشدين مكة المكرمة وخدام زمزم الشريف. ولم يحدد عددهم. ومخصصهم المالي أربعون سكة حسنة. خصصت لهم مع الفقرتين السابقتين (أي ٣٠ و ٣١) من أوقاف والدة السلطان. ومجموعها خمسمائة وتسعون سكة حسنة.[٥]

٣٣ – جماعة قراء سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وآية

١ الصفحة ٢٤/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ٢٤/أ – ٢٤/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ٢٤/ب– ٢٦–أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٤ الصفحة ٢٦/أ – ٢٦/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ الصفحة ٢٦/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

الكرسي، بحيث يقرأونها كل يوم عشر مرات. وعددهم خمسة وأربعون شخصاً، خصص لهم مبلغ ثلاثمائة سكة حسنة من أوقاف والدة السلطان[١]. وبذلك بلغ ما خصص من أوقافها لأهل مكة المكرمة ثمانمائة وتسعون سكة حسنة.[٢]

٣٤ – جماعة آغاوات الحرم الشريف، ويقرأون عقب الصلوات الخمس في مكة المكرمة سورة الفاتحة مرة واحدة، وسورة الإخلاص ثلاث مرات والصلاة على النبي المختار عشر مرات، ويهدون ثوابها لروح الحاج مصطفى آغا، آغا دار السعادة في إستانبول. وعدد آغاوات الحرم واحد وثمانون شخصاً. وبلغ مخصصاتهم من أوقاف مصطفى آغا خمسمائة وثمانون سكة حسنة.[٣]

وماعدا ذلك فهناك العديد من الجماعات الأخرى، مثل جماعة سقاة زمزم أثناء غسل الكعبة المشرفة، ومصروفات زيت القناديل التي توقد بين الصفا والمروة، وكثير من الوظائف الأخرى، والمخصصات غير محددة الصرف التي تركت مفتوحة لأهالي مكة المكرمة، والتي خصصت لها مبالغ من أموال وأوقاف الأسرة العثمانية الحاكمة

---

١ والدة السلطان: الاسم الذي أطلق على والدة السلطان العثماني. ويذكر أن أول إطلاق لهذا المصطلح كان لوالدة السلطان مراد الثالث، المعروف عنه تقديره البالغ لوالدته نور بانو سلطان، وهي زوجة والده السلطان سليم الثاني. ثم أصبح إطلاق هذا اللفظ على والدات السلاطين عادة متبعة في الدولة العثمانية. ويبدو أن المقصود من والدة السلطان في هذه الوثيقة هي والدة السلطان محمد خان الرابع، ابن السلطان إبراهيم خان(١٠٥٨–١١٠٤هـ)، الذي كان يحكم الدولة العثمانية في تلك الفترة. ولقبها كوسم سلطان، وهي ماهبيكر سلطان. انظر:
Osmanli Tarih Lugati/Midhat Sertoglu.- Istanbul: Enderun kitabevi, ١٩٨٦.p.٢٥٥

٢ الصفحة ٢٧/أ – ٢٨/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ٢٨/أ – ٣٠/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

وبعض الوزراء وكبار رجال الدولة العثمانية في إستانبول. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الاهتمام الذي أولاه العثمانيون لأهالي الحرمين الشريفين. وإمعاناً في ذلك التكليف، والتشرف بخدمة مجاوري الحرمين الشريفين لم يكتف هؤلاء الواقفون بإرسال الأموال إلى هذه البقعة المقدسة مرة أو مرات عدة؛ بل أوقفوا لها أوقافاً كثيرة في أنحاء مترامية من الأناضول وغيرها من أراضي الدولة العثمانية؛ للتأكيد على استمرار تلك العطاءات السخية إلى ما شاء الله تعالى.

المنهج المتبع في الدفتر:

نظر العثمانيون إلى الصرة الشريفة التي كانوا يرسلونها إلى أهالي الحرمين الشريفين، أنها واجبة على عاتقهم؛ وليس فضلاً يتفضلون بها على سكان الأراضي المقدسة. حيث تبتدئ العبارات الأولى التي يفتتح بها الدفتر "أن الصرة الواجبة إرسالها لأهالي مكة المكرمة" أو "المدينة المنورة للسنة" الفلانية.

وبناءً على الاهتمام الذي أولاه العثمانيون بقضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة، فإنهم كانوا يرسلون إلى الجماعة المحيطة بهم أيضاً مبلغاً مساوياً لما كانوا يرسلونها للقضاة أنفسهم. وإمعاناً في ذلك الاهتمام تصدر اسم قاضي مكة المكرمة على جميع الأسماء، وإن لم يصرح باسمه؛ تكريماً لشأنه؛ بعدّه من الشخصيات المعروفة. تلاه في الاهتمام أسماء السادة والأشراف، دون تفريق بينهم. إلا أن القسم الثالث من الأسماء الواردة في هذا الدفتر كان خاصاً بالأشراف. لكن لم يكن كل الأشراف منضوين تحت هذا القسم. بل وردت أسماء بعض الأشراف والشريفات في القسم الأول، كما

وردت في الأقسام الأخرى.

يتضح من الخط المستخدم وهو خط النسخ، أن خطاطاً واحداً أو أكثر كان قد أعد نسخ تلك الأسماء في إستانبول؛ ولم تكن الأسماء تدون برفقة أمين الصرة. والأمر الذي أدى بالباحث إلى هذا الرأي وجود عبارة في نهاية الدفتر تفيد أنه "حرر هذا الدفتر بمعرفة الأفقر مصلي [هكذا] آغا دار السعادة الشريفة الناظر على أوقاف الحرمين الشريفين"[١]. ومعروف أن آغا دار السعادة هو المشرف على القصر السلطاني[٢] في إستانبول. وقد دونت الأسماء والمبالغ المدفوعة لهم بخط رائع. وهذا يسري على سائر دفاتر الصرة. حيث قارن الباحث بين بعض دفاتر الصرة، فوجدها مشابهة ورائعة في جمال الخط. ويبدو أن الخط الموضوع تحت المخصص المالي لكل شخص في الدفتر، يفيد أنه تم تسليمه لصاحبه.

جاءت الأسماء باللغة العربية كاملة، كما هي مستخدمة في الجزيرة العربية: اسم العين، واسم أبيه ولقبه. مع إضافة لفظ السيد للشريف منهم، في بداية ورود الاسم. وذكرت المبالغ المالية المدفوعة لهم باللغة التركية (العثمانية) كتابة وليست بالأرقام، مع كتابتها

١ أنشئت نظارة أوقاف الحرمين الشريفين عام ٩٩٥هـ/١٥٨٧م لما أصبح محمد آغا الحبشي آغا دار السعادة. وتعني هذه النظارة الإشراف المباشر على أوقاف الحرمين الشريفين، الجزئية والكلية، المشروطة على أهالي الحرمين الشريفين.. أوقاف همايون نظاتنك تارخجهء تشكيلاتي ونظارك تراجم أحوالي/ابن الأمين محمود كمال.– إستانبول: مطبعة الأوقاف الإسلامية، ١٣٣٥هـ. ص ١٤–١٥

٢ كانت وظيفة آغا دار السعادة في الأصل الإشراف على قسم الحريم من القصر السلطاني.

Hayat Buyuk Turk Sozlugu.–Istanbul: Hayat yay.p. ٢٥٠

بخط السياقة أي الشفرة. وهي المستخدمة في الشؤون المالية للدولة العثمانية. وقد جاءت أسماء الأعيان مناصفة – تقريباً – مع أسماء أولادهم. ففي الصفحة الواحدة من الدفتر المشار إليه نجد نصف الأسماء الواردة فيها للأعيان، مثل "أم الهدى بنت محمود جلبي". والنصف الثاني للأولاد. مثل "أولاد السيد عمر وأولاد السيد حسين البار".[1]

وقد تبين من الأسماء الواردة في هذا الدفتر والدفاتر المماثلة له، أن لكل مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة في مكة المكرمة إمام ومفت، ولهما في الوقت ذاته صفة القضاء؛ حيث خصصت لهم المبالغ المالية حسب رؤية الدولة العثمانية – كما تبدو – لتلكم المذاهب. فالقاضي الحنبلي – وهو إمام الحنبلية وخطيبها في الوقت نفسه – خصص له ست وستون سكة، وخصص للقاضي المالكي – وهو مفتي المالكية – أربعون سكة. بينما خصص للإمام والخطيب الحنفي مائة وأربع سكك. وهذا الاختلاف في المخصصات يكمن في كون القاضي الحنفي كان إماماً وخطيباً للأحناف في مكة المكرمة، والقاضي الحنبلي كان إماماً وخطيباً للحنابلة. إلا أنه بالنظر لكون المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية فقد جاء مخصص إمام هذا المذهب أعلى من مخصصات أئمة المذاهب الأخرى. والقاضي المالكي – وهو إمام المالكية – خصص له اثنتان وثلاثون سكة ونصف.[2] أما القاضي الشافعي فلم يظهر له أي مخصص مالي من الصرة من خلال هذا الدفتر. ومن جهة أخرى فقد

---

١ الصفحة ٦/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٢ الصفحة ٤/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

وردت كلمة "الحنبلي" مضافة إلى أسماء الأعيان أكثر من كل المذاهب الأخرى.[١]

ومن خلال استعراض وظائف أئمة المذاهب وخطبائها ومفتيها يتبين أن هناك مفت لكل مذهب، وإمام وخطيب لكل مذهب؛ ماعدا المذهب الشافعي. حيث لم تذكر فيه مناصب أصحاب هذا المذهب وألقابهم. ولكل من أولئك صفة القضاء أيضاً إلى جانب وظيفة الإمامة والخطابة، كما سبق. ومما يجدر ذكره هنا أيضاً أن فراشاً أو أكثر كان يعمل لكل مقام من مقامات المذاهب الأربعة.[٢]

أما القسطاس[٣] الذي كان به تحدد المخصصات المالية لسكان مكة المكرمة – فتبدو بشكل واضح – حسب مكانة الشخص في المجتمع المكي. فقد خصصت مبالغ عالية لبعض أهالي مكة المكرمة. مثل المصونة فاطمة بنت الشيخ ياسين الطواشي. حيث خصص لها مبلغ خمس وثمانين سكة. ومثل ذلك ما خصص لعبد الغفار بن علي النبراوي. وهو اثنتان وتسعون سكة ونصف. بينما خصصت لبعض من أهالي مكة مبالغ قليلة، بالمقارنة بتلك المبالغ العالية وهي نصف سكة، المخصص للقاضي مرشد الدين بن أحمد

---

١ انظر على سبيل المثال الصفحة ١٧/ب، والصفحة ١٨/ب، والصفحة ١٩/أ.

٢ الصفحة ١٩/أ من الدفتر ١٣٢.

٣ القسط: العدل، وهو من المصادر الموصوف بها. يوصف به الواحد والجمع. يقال ميزان قسط، وميزانان قسط وموازين قسط. قال تعالى: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة". والقسطاس: أضبط الموازين وأقومها. وفي التنزيل العزيز "وزنوا بالقسطاس المستقيم". المعجم الوسيط/إبراهيم أنيس وزملاؤه.– ط٢.– القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ٢: ٧٣٤/.

بن عيسى[١]. وأعلى مبلغ مالي مخصص لأهالي مكة المكرمة كان لـ "أولاد مصطفى بن نصوح الرومي" الذي بلغ مائة وإحدى وعشرين سكة[٢]. أما أقل المبالغ تخصيصاً لأهالي مكة المكرمة فهو سدس دينار المخصص لأولاد نور الدين بن سلمان[٣]. وقد وجد الباحث هناك تبايناً ملحوظاً في المبالغ المخصصة لأفراد الأسرة الواحدة. ففي الوقت الذي خصص فيه مبلغ ثلاث وخمسين سكة لفاطمة بنت الشيخ محمد ابن حجر، خصص فيه لأولاد الشيخ رضي الدين بن حجر مبلغ خمس سكك ونصف، وخصص لمريم بنت الشيخ أبي السعود بن عبد الله بن حجر ست سكك فقط.[٤] ويبدو أن هذا التباين في المبالغ المخصصة يدل على مكانة فاطمة في المجتمع المكي، وبالتالي تأثيرها على أمانة الصرة. ومن جهة أخرى فقد لاحظ الباحث أن أفراد الأسرة الواحدة يأتي ذكرهم بشكل متسلسل، وجنباً إلى جنب. كما هو الحال في أسرة القطبي.[٥] إلا أن هناك حالات قليلة ورد فيها أسماء أفراد الأسرة الواحدة في أماكن مختلفة. كما هو الأمر في أولاد بابا البخاري.[٦]

وقد تبين للباحث أن المبلغ المالي المخصص لكل اسم من الأسماء الواردة في هذا الدفتر، كان مكتوباً كتابة باللغة العثمانية. وتضمن كثير من الأسماء مبلغاً آخر بجانب المبلغ المكتوب والمحدد.

١ الصفحة ٧/ب من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ١٤/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٣ الصفحة ١٠/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٤ الصفحة ٦/ب من الدفتر ١٣٢.

٥ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.

٦ قارن بين الصفحة ١٠/أ، والصفحة ١١/أ.

ويبدو أن هذا المبلغ الآخر المكتوب أيضاً كتابة وليس رقماً، هو المبلغ المدفوع لصاحبه. وهذا المبلغ عادة أكثر من المبلغ الأول. فعلى سبيل المثال: المبلغ المحدد لأولاد يوسف وأولاد أحمد بن عمر المرحاوي كان سكة واحدة. فوجد أمين الصرة – كما يبدو – أن سكة واحدة لكل هؤلاء الأولاد غير كاف لإعاشتهم. فرفع لهم المبلغ، ودفع لهم سبعاً وعشرين سكة.[١] ومن ذلك أيضاً المبلغ المخصص لخلق الله بنت الشيخ أحمد ياسين، وهو خمس سكك، رفعه أمين الصرة إلى ثلاث وخمسين سكة.[٢] وعلى العكس من ذلك، هناك بعض الأسماء، انخفضت مخصصاتها. مثل صالحة بنت محمود البسطي؛ حيث كان المبلغ المحدد لها تسع سكك، نزل إلى سبع سكك.[٣] إلا أن هذا قليل. والغالب الأعم أن يرفع أمين الصرة المبلغ، قليلاً كان أم كثيراً. بل هناك كثير من الأسماء رفع أمين الصرة حصتها أكثر من ضعفين، مثل "أولاد عمر بن أبي بكر الشامي". فقد كانت مخصصاتهم أربع سكك ونصف، رفعها أمين الصرة إلى عشرين سكة.[٤] بل إن مخصص علي بن سليمان العدواني كان سكة واحدة رفعها أمين الصرة إلى أربعين سكة.[٥]

اشتمل الدفتر على أسماء بعض الأعيان من النساء أيضاً. وبعض من أسماء هؤلاء النساء قد سبقته صفة "المصونة" كما هو

١ الصفحة ٩/ب من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢

٣ الصفحة ٦/أ من الدفتر ١٣٢

٤ الصفحة ١٠/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٥ الصفحة ١١/أ من الدفتر رقم ١٣٢

الحال في "المصونة فاطمة بنت الشيخ محمد القطبي".[١] كما تضمن أسماء بعض أولاد الأعيان، مضافين إلى اسم أبيهم. مثل: "أولاد الشيخ خليفة ابن أبي الفرج الزمزمي".[٢] مما يوحي بأن والدهم في تلك السنة لم يكن على قيد الحياة، أو أن الصرة المخصصة لأبيهم قد انتقلت إليهم؛ بسبب الوفاة أو التفرغ. وجاء التصريح بأسماء الأولاد في بعض الأحيان. كما هو الحال في "محمود ومحمد وسليم وأم هاني وأمينة وفاطمة، أولاد مصطفى جلبي".[٣] ووردت أسماء بعض الأعيان مع ذكر لفظ "أولاده". كما هو الحال في "الشيخ عبد الله بن حسن العفيف وأولاده".[٤] وجاء ذكر لبعض الأولاد نيابة عن والدتهم، مثل "أولاد عبد النبي بن محمد عن والدتهم أمينة"[٥] مما يوحي أن المخصص المالي من الصرة انتقلت إليهم من والدتهم وليس من والدهم. كما استخدم فيها عبارة أخرى، هي "بقية الشيخ.." ما يوحي أنها انتقلت إلى ورثة هذا الشيخ. لكن يبدو لاستخدام كلمة "بقية" مفارقة، لاستخدام كلمة "أولاد". ولعل القصد منه أن الشيخ المشار إليه لم يعقب؛ وإنما ترك وراءه نساءً. إلا أن المبلغ المخصص له يتجاوز المبلغ المخصص لقاضي مكة المكرمة، كما هو الحال في "بقية الشيخ محمد باوزير"[٦]. ما يدل على أن له معنى خاصاً في الاصطلاح العثماني. وكذلك استخدم لفظ "عيال" أيضاً إلى جانب استخدام لفظ "أولاد". كما هو الحال في

---

١ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ٤/ب من الدفتر رقم ١٣٢.

٣ الصفحة ٦/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٤ الصفحة ٦/أ من الدفتر رقم ١٣٢.

٥ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.

٦ الصفحة ٤/أ من الدفتر ١٣٢.

"عيال مصطفى أفندي بن عبد الرحمن كره باش". [١] و"أولاد أسنية بنت الشيخ عبد الملك". [٢] وقد وردت المقارنة بينهما في "أولاد وعيال وعتقاء الخوجه بهاء الدين النقشبندي" [٣] ما يدل على وجود فرق بينهما في الاستخدام. فلفظ العيال إذاً يمكن أن يكون مأخوذاً من المعنى اللغوي وهو ما كان يعولهم المذكور، أي يُعينُهم في قوتهم. [٤] ومن هذا القبيل أيضاً استخدام لفظ "جماعة" فلان. كما هو الحال في جماعة قاضي مكة المكرمة، حيث خصص لهم خمسون سكة. [٥] واستخدام لفظ "تبعة" فلان، أي من أتباعه. كما هو الأمر في لغوس، من أتباع الشيخ عبد الكبير بن ياسين. [٦] ومنها "تابع". كما هو الحال في "عبد الله بن مثقال، تابع السيد سيخان". [٧] ومنها أيضاً لفظ "عتيقة" فلان، أي معتَقته. كما هو الحال في معتَقتي شيخ الحرم، ماه أنور خاتون، ورحيمة خاتون، المخصص لهما اثنتا عشرة سكة ونصف. [٨] والجدير بالذكر أن هناك بعض الأسماء لعتقاء وعتيقات بعض الأعيان في مكة المكرمة من الأشراف ومن غيرهم، كان قد خصصت لهم مبالغ مالية من الصرة. مثل: سعيدة، عتيقة المصونة تعسر بنت الشيخ

١ الصفحة ٥/أ من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.

٣ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.

٤ انظر: المعجم الوسيط/إبراهيم أنيس وزملاؤه.– ط٢.– القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٣م. مادة عال: ٦٣٧/٢

٥ الصفحة ٤/أ من الدفتر ١٣٢.

٦ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.

٧ الصفحة ٦/أ من الدفتر ١٣٢.

٨ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.

عبد الهادي أبو الليل.[١]

وقد لاحظ الباحث اهتماماً كبيراً بالبنات في تخصيص مبالغ مالية لهن من الصرة. فقد ورد التصريح بأسماء ثلاث بنات للفقيه محمد بن إبراهيم البرعي، هن: سلمى وسعادة وأم هاني. ثم جاء ذكر لبناته الأخريات دون التسمية "بنات الفقيه إبراهيم البرعي..". ومن هنا يتبين أن لهذا الفقيه ست بنات خصصت الصرة لخمس منهن بدرجات متفاوتة.[٢]

وقد تبين أن لعدة أشخاص في أسرة واحدة مخصصات مستقلة لكل واحد منهم. كما هو الحال في آل كره باش. ففي الوقت الذي خصص لمصطفى أفندي كره باش إحدى عشرة سكة ونصف، خصص لعيال مصطفى بن عبد الرحمن كره باش اثنتا عشرة سكة، ولخديجة بنت عبد الرحمن كره باش ستاً وعشرون سكة ونصف.[٣] كما هو الأمر كذلك في أسرة علان.[٤]

اشتمل بعض الأسماء على معلومات لأسرة علم من الأعلام التي خصصت لها الصرة. منها على سبيل المثال: الإمام علي الطبري. حيث جاء التصريح بأولاده من زوجتيه: عائشة وأمينة، بنتي محمد عارف. ما يدل على أن له أولاداً من غيرهما أيضاً.[٥] ومن هذا القبيل أيضاً وجود التصريح ببعض الأسماء دون اسم واحد. كما هو الحال في "أولاد

١ الصفحة ١٣/أ من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ٧/ب من الدفتر ١٣٢.

٣ الصفحة ٥/أ من الدفتر ١٣٢.

٤ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.

٥ الصفحة ٥/أ من الدفتر ١٣٢.

القاضي محمود بن موسى ماعدا رقية".[١] وفي هذه الحالة إما أن رقية تنازلت عن مخصصها؛ لعدم حاجتها إليه، أو أن لها مخصصاً مستقلاً عن إخوانها. ومن هذا القبيل أيضاً بقية أولاد حسن رضا الطاهر ماعدا صفاء وطاهر".[٢]

ومع التصريح بأسماء أولاد بعض الأعلام، فقد جاءت أسماء أخرى مبهمة. مثل ما ذكر "الشيخ مقبول بن عثمان الدهان"، و"رابعة بنت الشيخ عثمان الدهان" ثم جاء ذكر "أولاد الشيخ عثمان الدهان" ما يدل على أن هناك بعض الأولاد لهم مخصص مشترك، بينما كان لأخ وأخت مخصص مستقل.[٣] ومن هذا القبيل تخصيص مبلغ مستقل لشخص ما وابنه بدرجات متفاوتة. مثل: "عبد القادر بن علي السروري" و"أولاد عبد القادر السروري".[٤]

وقد لاحظ الباحث أن المشتركين في حصة معينة من الصرة من غير أسرة واحدة، كانت حصتهم تسلم إليهم بحضور ناظر الصرة. كما سيأتي ذلك في القيد الموجود على صرة "ماه أنور خاتون ورحيمة خاتون"[٥] وعلى صرة "الملا يعقوب أفندي ومحمد أفندي، أقرباء محمد عناقي أفندي والملا إبراهيم عينتابي والملا حسن حميدي والشيخ عبد الوهاب قاري" المشتركة.[٦] إلا نادراً، ولا سيما إذا كان المبلغ

١ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.
٢ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.
٣ الصفحة ٦/ب من الدفتر ١٣٢.
٤ الصفحة ٧/ب من الدفتر ١٣٢.
٥ الصفحة ٧/ب من الدفتر ١٣٢.
٦ الصفحة ١٠/أ من الدفتر ١٣٢.

المخصص قليلاً، كما في "وردة وثريا عتقاء صالحة بنت علي بن أحمد".[١] حيث لم يسلم المبلغ بحضور الناظر.

ومن جهة أخرى فقد تبين من استعراض بعض الأسماء الواردة في القسم الرابع من الدفتر وهو الخاص بالأروام المجاورين في مكة المكرمة، أن بعض الموظفين العاملين في مناطق عديدة من الجزيرة العربية، لم يرجعوا إلى الأناضول بعد انتهاء عملهم؛ بل استقروا في مكة المكرمة. كما دلت على ذلك وظائفهم المصرح بها ضمن أسمائهم. من ذلك: رحمة بنت علي باشا، أمير أمراء الأحساء[٢]، وأولاد مصطفى أفندي قلنبوي، قاضي جدة[٣]. كما تبين من استعراض الأسماء الواردة في القسم الخامس من الدفتر وهو الخاص بجماعة الأعاجم في مكة المكرمة، أنه قد أدرج فيهم الهنود وأهل سمرقند وبخاري والكرمان وغيرهم من مسلمي قارة آسيا بعامة، كما أدرج فيهم بعض من أهل اليمن.[٤]

وتبين أيضاً أن المخصص المالي لخدام مدرج البيت المعظم، قد خُصص للوظيفة، بخلاف الأعيان من الأشخاص الواردة أسماؤهم مع وظائفهم في كل الدفتر؛ حيث لم ترد أسماء العاملين في خدمة المدرج؛ وإنما ورد اسم الوظيفة، التي كان يعمل فيها اثنا عشر شخصاً، ومجموع مخصصاتهم أربع وعشرون سكة حسنة.[٥] ومثل ذلك جماعة

---

١ الصفحة ١٠/أ من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ١٣/ب من الدفتر ١٣٢.

٣ الصفحة ١٤/أ من الدفتر ١٣٢.

٤ الصفحة ١٥/ب وما بعدها.

٥ الصفحة ١٨/أ.

آغاوات الحرم الشريف،[١] الذين كانت لهم مخصصات من عدة جهات، إضافة إلى الصرة.[٢] ومثل ذلك المبالغ المخصصة لإزالة الحيوانات الميتة بين المعلاة وبين جبل عرفات.[٣]

وقد تبين للباحث أن بعض الأسماء تكرر ورودها مرتين في داخل المجموعة الواحدة. كما هو الأمر في الحاج شكر بن مصطفى الرومي وأولاده.[٤] وكذلك في محمد أفندي حجازي زاده في المجموعة ذاتها.[٥] وقد تكرر أيضاً اسم مليحة بنت محمد يحيى في الجماعة التي تليها مرتين.[٦] بل هناك أسماء تكرر ورودها في داخل المجموعة الواحدة ثلاث مرات. كما هو الأمر في نور الصباح بنت عبد الله.[٧] كما أن هناك أسماء تكرر ذكرها في داخل مجموعتين مختلفتين. مثل خديجة بنت عبد الرحمن كره باش.[٨] وأسماء أخرى كثيرة..

تضمن الدفتر الذي بين أيدينا بعض القيود[٩] على بعض الأسماء الواردة فيه. من ذلك وبالترتيب:[١٠]

---

١ الصفحة ٢٠/أ.

٢ انظر على سبيل التمثيل: ص ٢٣/أ، و٢٣/ب، و٢٤/ب.

٣ انظر: ص ٤٣/أ.

٤ الصفحة ٢٧/أ. وقد تكرر هذا الاسم للمرة الثالثة في صفحة ٢٨/ب.

٥ الصفحة ٢٨/أ.

٦ الصفحة ٢٨/أ، و ٢٨/ب.

٧ انظر على سبيل التمثيل: ص ٥٠/أ و ب.

٨ وقد تكرر اسمها في الصفحة ٥/أ وفي الصفحة ٢٨/ب.

٩ يقصد بالقيود: التعليقات التي دونت على بعض الأسماء الواردة في هذا الدفتر؛ سواء في توضيح كيفية دفع المخصص إلى صاحبه، أو في نقل المخصص إلى غير صاحبه بموافقته، أو غير ذلك من الأمور.

١٠ بناءً على إيراد تلك القيود هنا، فلم يشر إليها أثناء ورودها مع الأسماء في الدفتر.

١ – القيد الموجود على اسمي: "ماه أنور خاتون ورحيمة خاتون". حيث ذكر هذا القيد أنه تم تسليم المبلغ للمذكورتين بحضور جناب الناظر.[١] وكذلك القيد الموجود على أسماء "الملا يعقوب أفندي ومحمد أفندي، أقرباء محمد عناقي أفندي والملا إبراهيم عينتابي والملا حسن حميدي والشيخ عبد الوهاب قاري" المشتركة.[٢] كما سلف ذكره.

٢ – القيد الموجود على اسم: مريم بنت الشيخ أبو السعود بن عبد الله بن حجر. حيث أشار هذا القيد إلى أن المشار إليها قد تبرعت بثلاث أعداد من الذهب [أي السكك] إلى أولاد الشيخ عبد الرحمن بن حجر الشافعي، من مجموع ست سكك، فبقي لها ثلاث سكك. ومن خلال هذا القيد يتبين أن السكك كانت ذهبية.[٣]

٣ – القيد الموجود على اسم: الشيخ علي الأيولي وكريمته خاتون. حيث أفاد هذا القيد أن الشيخ علي قد تنازل عن ذهبيتين اثنتين لأولاد الشيخ محمد المنتصر التونسي بموجب حجة شرعية، وأنه بذلك بقيت سكة واحدة لأبناء الشيخ على الأيولي، ما يدل في الوقت ذاته أن الشيخ لم يكن على قيد الحياة؛ إذ تفيد العبارة أن أولاد الشيخ محمد المنتصر قد راجعوا المحكمة الشرعية، أو أن الشيخ علي الأيولي قد أصدر حجة شرعية بذلك التنازل قبل وفاته.[٤]

١ الصفحة ٥/ب من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ١٠/أ من الدفتر ١٣٢.

٣ الصفحة ٦/ب من الدفتر ١٣٢.

٤ الصفحة ٧/أ من الدفتر ١٣٢.

٤ – القيد الموجود على اسم: فاطمة بنت محمد الكركيه. حيث أفاد هذا القيد أن السيدة المشار إليها قد تنازلت عن خمس ذهبات من مجموع أحد عشر ذهباً [سكة] هي حصتها من الصرة، لكمال بن مياخان الأفغاني بموجب حجة شرعية مؤرخة في شهر رمضان ١٠٧٨هـ، وأنه بناءً على ذلك فقد بقي بها ست سكك.[١]

٥ – القيد الموجود على اسم: الشيخ أحمد بن ناصر الدين البحراوي. ويفيد أنه تنازل للحاج علي بموجب حجة شرعية صادرة في ١٥ ذو القعدة [على ما يبدو][٢] عام ١٠٧٨هـ. لكن لم يتبين للباحث المبلغ الذي تنازل عنه.[٣]

٦ – القيد الموجود على اسم: أولاد يحيى بن قاسم بن سالم باصولم المغربي. ويفيد أنهم تنازلوا عن قسم – كما يبدو – من حصتهم من الصرة لغيرهم بموجب حجة شرعية. لكن لم يتضح للباحث لمن تنازلوا، والمبلغ الذي تنازلوا عنه.[٤]

٧ – إقحام لاسمين في الصفحة التاسعة من الدفتر. وهو اسم: أولاد إسماعيل دحيدح المدني، وأولاد عبد الله بن ياقوت التلواني. وقد ذكر بجانب كل منهما: "عن ساقط". وأفاد الشرح الموجود في الحاشية اليسرى من الاسمين المذكورين: أن الاسمين كانا موجودين في الأصل؛ إلا أنهما سقطا سهواً، وأنه تم تصحيحهما ووضعهما في هذا المكان؛ لنيل الثواب العظيم من الله تعالى.

---

١ الصفحة ٨/أ من الدفتر ١٣٢.

٢ الخط الذي دون به القيد غير واضح؛ ولذلك ذكره الباحث بصيغة غير مؤكدة.

٣ الصفحة ٨/ب من الدفتر ١٣٢.

٤ الصفحة ٩/أ من الدفتر ١٣٢.

٨ – أفاد القيد الموجود على اسم: خديجة بنت علي بن عبد الرحيم القشاشي أنها تنازلت عن حصتها لحسن بن علي وأولاده بموجب حجة شرعية صادرة في ١٧ ذي القعدة – على ما يبدو – من عام ١٠٧٨هـ. إلا أن المبلغ الذي تنازلت عنه لم يتضح للباحث.[١]

٩ – القيد الموجود على اسم: قادري بن حسين البحيري. حيث ذكر هذا القيد أن المذكور تنازل عن خمس سكك من صرته إلى كل من كريمة وعائشة بنتي عبد الله حسن البحراوي في ٢٠ من ذي القعدة – على ما يبدو – ١٠٧٨هـ.[٢]

١٠ – القيد الموجود على اسم: سعيدة بنت جميلة بنت خير الله عتيقة المتقي. حيث أفاد هذا القيد أنها تنازلت عن سكتين لعبد الله بن حسين الكشميري بموجب حجة شرعية في ١٧ ذي القعدة – كما يبدو – ١٠٧٨هـ. وأنه بقي لسعيدة المذكورة سكة واحدة.[٣]

١١ – القيد الموجود على اسم: أحمد بن حجازية بنت عمر الطبلاوي. حيث أفاد هذا القيد أنه تنازل عن مخصصه لعبد الله بن جزائري – كما يبدو – في ١٧ ؟ ١٠٧٨هـ.[٤]

١٢ – القيد الموجود على اسم: الحاج إبراهيم عبد الله، مجاور عن عتقاء شيخ الحرم. وأفاد هذا القيد أنه تم تسليم المبلغ بحضور جناب الناظر، وأنه تم التسجيل (أي المخصص) باسم الأولاد.[٥]

---

١ الصفحة ٩/ب من الدفتر ١٣٢.

٢ الصفحة ١٠/أ من الدفتر ١٣٢.

٣ الصفحة ١١/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٤ الصفحة ١٢/أ من الدفتر رقم ١٣٢

٥ الصفحة ١٢/ب من الدفتر رقم ١٣٢

١٣ – القيد الموجود على اسم: السراحي عمر بن محمد اللؤلؤ الصالع لهكذا!. وأفاد هذا القيد أن" ابن المذكور الشيخ محمد المنتصر التونسي قد تنازل عن ذلك بموجب حجة شرعية في ٢٠ رجب ١٠٧٨هـ.[١]

١٤ – القيد الموجود على اسم: المصونة بصيرة [كما تبدو] بنت علي القباني [كما يبدو]. حيث أفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها من الصرة لأولاد نصرة الحمد [كما يبدو] بن محمد، بموجب حجة شرعية في ١٩ ؟ ١٠٧٨هـ.[٢]

١٥ – القيد الموجود على اسم: عيال الفايد سالم بن أحمد الرحاق. فأفاد هذا القيد أنهم تنازلوا عن حصتهم بموجب حجة شرعية في ١٧ ذو الحجة – كما يبدو – ١٠٧٨هـ.[٣]

١٦ – القيد الموجود على اسم: تحيفة بنت عبد الله الحبشية عيال بلال شمس. حيث أفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها للشيخ محمد بن يوسف بموجب حجة شرعية في ١٩ ذو الحجة – كما يبدو – ١٠٧٨هـ.[٤]

١٧ – القيد الموجود على اسم: مريم بنت صديق الصباغ وعبد القادر. حيث أفاد هذا القيد أن المذكورة تنازلت عن حصتها لمريم بنت طه الخياط.[٥]

---

١ الصفحة ١٢/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٢ الصفحة ١٢/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٣ الصفحة ١٣/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٤ الصفحة ١٤/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٥ الصفحة ١٦/ب من الدفتر رقم ١٣٢

١٨ – القيد الموجود على اسم: أولاد بانو بنت عبد الله الأفروي. حيث أفاد القيد أنهم تنازلوا عن ست سكك من حصتهم لأولاد هيثم ابن حبيب اللاهوري بموجب حجة شرعية خالية من التاريخ.[١]

١٩ – القيد الموجود على اسم: عبد القادر بن جلال العيني – كما يبدو –. وأفاد هذا القيد أنه تنازل عن حصته لأولاد عمر الفران بموجب حجة شرعية في ١٩ جمادى الآخرة ١٠٧٨هـ.[٢]

٢٠ – القيد الموجود على اسم: عطائي محمد أفندي، كاتب رئيس البوابين. حيث ذكر هذا القيد أن المذكور تنازل عن حصته بحسن اختياره لأعلم العلماء[٣] الشيخ جعفر أفندي الواعظ، وأنه تم بذلك تسجيل اسم جعفر أفندي، في ٢ ذي الحجة ١٠٧٨هـ.[٤]

٢١ – القيد الموجود على اسم: رجب تابع الفايد سالم المغربي، مشد باب عباس. حيث أفاد هذا القيد أنه تنازل عن حصته لمحمد أفندي الحجاري بموجب حجة شرعية خالية من التاريخ.[٥]

٢٢ – القيد الموجود على اسم عبد الله الصعدي وأولاد محمد العسلي. حيث أفاد هذا القيد أن المذكورين تنازلوا عن حصتهم عن الجزائري وعبد الله الجزائري بموجب حجة شرعية في ١٩ ذو الحجة –

---

١ الصفحة ١٦/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٢ الصفحة ١٧/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٣ وصف الشيخ جعفر بأعلم العلماء ورد في الدفتر كما هو. فتقيد به الباحث. وإطلاق مثل هذه الأوصاف على بعض العلماء في عصورهم نسبي، وليس قطعياً ويقينياً.

٤ الصفحة ١٩/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٥ الصفحة ٢١/أ من الدفتر رقم ١٣٢

كما يبدو – ١٠٧٨هـ.[١]

٢٣ – القيد الموجود على اسم: السيد محمود ابن السيد محمد مفتي دياربكر سابقاً. وذكر هذا القيد أنه تم تخصيص هذا المبلغ لأولاد السيد ميرغني البخاري بموجب حكم قاضي مكة مولانا السيد في ٢ ذي الحجة ١٠٧٨هـ – كما يبدو.[٢]

٢٤ – القيد الموجود على اسم: المصونة خضراء بنت سعادة. وأفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها بالتبادل[٣] مع عائشة بنت محمد طيب البخاري بموجب حجة شرعية.[٤]

٢٥ – القيد الموجود على اسم: الشيخ عبد الرحمن بن حنيف الدين المرشدي. حيث ذكر هذا القيد أنه تنازل عن ثلاث سكك من حصته بالتبادل مع عبد الله بن محمد بن حجر المدني بموجب حجة شرعية.[٥]

٢٦ – القيد الموجود على صالحة بنت أبو القاسم المصري. وأفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها لمحمد وعلي وحسين وفاطمة أولاد صالحة بنت أبو القاسم المصري (أي أولادها)، بموجب حجة شرعية.[٦]

٢٧ – القيد الموجود على اسم: فاطمة بنت القاضي نجم الدين

---

١ الصفحة ٢٣/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٢ الصفحة ٢٣/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٣ تقيد الباحث هنا بالأصل العثماني. فذكر العبارة كما هي. والمقصود من ذلك أن خضراء بنت سعادة قد تنازلت عن حصتها لعائشة بنت محمد طيب البخاري.

٤ الصفحة ٢٥/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٥ الصفحة ٢٧/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٦ الصفحة ٢٧/ب من الدفتر رقم ١٣٢

المالكي. حيث أفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها بالتبادل لفاطمة بنت الشيخ محمد الخطبي، بموجب حجة شرعية.[١]

٢٨ – القيد الموجود على اسم خديجة بنت علي القشاشي. وأفاد هذا القيد أنها تنازلت عن حصتها بموجب حجة شرعية لحسن بن علي وأولاد عبد الرحمن طحنية بموجب حجة شرعية في ١٩ ذو الحجة – كما يبدو – ١٠٧٨هـ.[٢]

٢٩ – القيد الموجود على اسم: عمر بن محمد الصانع اللؤلؤ. حيث أفاد هذا القيد أنه تنازل عن حصته لخضراء خاتون، من أتباع محمد بيك بموجب توصية من القاضي وشيخ الحرم.[٣]

٣٠ – القيد الموجود على اسم: أولاد أحمد جلبي بن محمد الأرضرومي. وأفاد هذا القيد أنهم تنازلوا عن حصتهم لأولاد الشريفة أم هاني بنت حسين البخاري بموجب حجة شرعية في ١٩ ذو الحجة – كما يبدو – ١٠٧٨هـ.[٤]

هذا.. وقد أفادت المعلومات الواردة في الصفحة الأربعين من الدفتر أن مجموع الأموال المحددة الوظائف وغير المحددة التي استلمها أمين الصرة في ٦ رجب ١٠٧٨هـ لتوزيعها على أهالي مكة المكرمة من الصرة قد بلغ أربعة عشر ألفاً وثمانمائة وإحدى وسبعين سكة. منها أربعة آلاف وأربعمائة وتسع وثمانين سكة حسنة للوظائف غير

---

١ الصفحة ٢٨/أ من الدفتر رقم ١٣٢

٢ الصفحة ٢٩/أ من الدفتر رقم ١٣٢

٣ الصفحة ٣٠/ب من الدفتر رقم ١٣٢

٤ الصفحة ٣٠/ب من الدفتر رقم ١٣٢

المحددة، وعشرة آلاف وثلاثمائة واثنتان وثمانون سكة حسنة للوظائف المحددة. كما تضمنت هذه الصفحة أربع عبارات مستقلة، وتحت كل منها ختم صاحبها:

العبارة الأولى:

حرر هذا الدفتر بمعرفة الأفقر مصلي [هكذا] آغا دار السعادة الشريفة الناظر على أوقاف الحرمين الشريفين. والاسم الموجود داخل الختم لم يتضح للباحث.

العبارة الثانية:

الدفتر الذي يعمل بفذلكته[١] رُقّم بمعرفة الفقير إليه سبحانه إبراهيم المعيَّن على أوقاف الحرمين الشريفين. والاسم الموجود داخل الختم لم يتضح للباحث.

العبارة الثالثة:

وزع ما فيه بين أصحابه، وأوصل الخير لطلابه، تقبل الله تعالى ذلك من حضرة صاحب الحسنات وأدامه ما دامت الأرض والسماوات. وكتبه الفقير السيد عبدالله القاضي بمكة المكرمة دامت مشرَّفة ومعظَّمة. ختم: عبد الله بن محمد.

العبارة الرابعة:

قسم ووزع ما فيه بين أربابه ومستحقيه بمعرفة الفقير محمد، أمير اللواء[٢] وشيخ الحرم بمكة المشرفة وحاكم جدة. ختم: محمد، وما توفيقي إلا بالله.

---

١ الفذلكة: هي الكلام المختصر والمجمل. والمقصود هنا أي بمضمونه.

٢ يقصد بأمير اللواء هنا: أي القائد العسكري. ومعلوم أن والي جدة كان القائدَ العسكري أيضاً للمنطقة.

الخاتمة

إن ما تم عرضه بشيء من الاقتضاب من دفتر الصرة رقم ١٣٢ هو غيض من فيض. فقد أفادت المعلومات الواردة في هذا الدفتر وما يمكن أن يستنبطه الباحث ما وراء النصوص والأسماء، كثيراً من المعلومات عن المجتمع المكي في حياته الدينية والثقافية والاجتماعية في أواخر القرن الحادي عشر الهجري. فقد أفاد الدفتر أن للحرم الشريف في ذلك الوقت أكثر من عشرة أبواب. هي: باب السلام، وباب الزيادة، وباب الباسطية، وباب العمرة، وباب أم هاني، وباب الرحمة، وباب الصفا، وباب علي، إضافة إلى الأبواب الأخرى المذكورة في القسم الخاص بمشدي أبواب الحرم. وأن عدد الأربطة الموجودة في مكة المكرمة في ذلك التاريخ قد بلغ خمسة وعشرين رباطاً وقد أوردت أسماءها، ومعظمها بجوار الحرم الشريف، ضم خمسمائة وسبعة وسبعين شخصاً، قد يكون بعضهم أُسراً، لم يذكر منها إلا فرد واحد. كما تضمن معلومات مفيدة عن الوظائف الموجودة في ذلك التاريخ بالحرم الشريف، كالإمامة والخطابة والسقاية والفراشة، وإشعال القناديل وإغلاق الأبواب وفتحها، إضافة إلى التعرف على أسماء أعيان تلك الفترة في مكة المكرمة وعلمائها ممن كانت لهم مخصصات مالية، سواء من الصرة أو من الأوقاف التي كانت ترسل مع الصرة مع قافلة الحج في كل سنة. ومن جهة أخرى فإن معرفة وظائف الحرم، والإلمام بأسماء أبوابها يسهم بشكل كبير في التعرف على التطورات التي طرأت على الحرم المكي الشريف، ويعطي المجال للقيام بإجراء مقارنة بين وضعها في تلك الفترة، ووضعها ما قبل ذلك وما بعده.

ومما لا شك فيه أن الاطلاع على تلك الدفاتر ومقارنة بعضها ببعض بالتسلسل التاريخي، سوف يوضح كثيراً من الأمور الاجتماعية للمجتمع المكي، ويساعد على التعرف على الأربطة الموجودة في مكة المكرمة على سبيل المثال، وكيفية إقامتها والفترة التي انتعشت فيها ، وأوضاع القاطنين فيها من خلال مقارنة المعلومات الواردة في تلك الدفاتر.

وأخيراً فإنني أوصي في هذا المقام الأساتذة والباحثين في حقل التاريخ أن يلتفتوا إلى دفاتر الصرة في الأرشيف العثماني، وإعداد بحوث علمية في ضوئها عن المجتمع المكي، فسوف تُفتح أمامهم آفاق من البحث العلمي المتميز من خلال دفاتر الصرة التي تمتد ما لا يقل عن أربعة قرون، من بدايات القرن الحادي عشر وحتى العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري.

ملاحق البحث

مبدأ الدفتر رقم ١٣٢: الصفحة ٤/أ

الصرة الشريفة السلطانية الرومية الجديدة الواجبة، المرسلة لأهالي مكة المكرمة في سنة ثمان وسبعين وألف

مولانا قاضي مكة المكرمة – دامت فضائله خمسون سكة

جماعة مولانا المشار إليه [أي قاضي مكة المكرمة] خمسون سكة

أولاد السيد محمد علي بافقيه العيدروس اثنتان وعشرون سكة وثلاثة أرباع ينار: ١٤

أولاد السيد حسين بن علي بافقيه العيدروس إحدى وعشرون سكة وربع دينار: ١

السيد أحمد بن السيد عبد الله بافقيه العيدروس اثنتان وعشرون سكة وربع دينار: ١

أولاد لطيفة بنت الشيخ عبد الرحمن باوزير الخطيب اثنتا عشر ونصف سكة: ١٢

بقية الشيخ محمد باوزير ستون سكة

أولاد السيد أبي بكر بن محمد بن عقيل باعلوي اثنتان وسبعون سكة: ٧٠

السيد أحمد وأخواته أولاد السيد أبي بكر بن محمد باعلوي خمس وثمانون سكة

عبد الغفار بن علي النبراوي اثتان وتسعون ونصف سكة: ١٠

أولاد حسن بن علي النبراوي سبعون سكة: ثلاثة وخمسون

بقية المصونة حسينة بنت عبد الحافظ ستون [سكة]

المصونة صالحة بنت بدر الدين النبراوي تسع عشرة سكة

عنبر[1] عتيق علي وعتقاء حسن بن علي أربع سكك

أولاد الشيخ أسعد بن أكمل الدين ست وثلاثون سكة

الشيخ أحمد القطبي وإخوانه إحدى وأربعون سكة: ١٨

أم الخير بنت أكمل الدين أربع عشرة

المصونة سعادة بنت الشيخ سعيد الميعي [هكذا] ثلاث سكك

الصفحة الأخيرة من الدفتر رقم ١٣٢ وهو الورقة الخمسون

أولاد محمد وحسين بن نعمة الله بن [هكذا] عشر سكك

أولاد حسن الواني خمس سكك

أولاد الشيخ عبد الرحمن بن عيسى المفتي سكتان

مرجان بن عوض ثلاث سكك

نور الصباح بنت عبد الله[2] ثلاث سكك

أولاد الشيخ خالد المالكي خمس عشرة سكة

---

١ يبدو أنه عُتق من لدن سيده علي، كما تفيده العبارة الواردة بعد اسمه مباشرة "عتيق علي". ويؤكد ذلك ما ورد بعد ذلك "عتقاء حسن بن علي".

٢ اسم "نور الصباح بنت عبد الله" تكرر في هذه القائمة وضمن هذه الفئة ثلاث مرات.

عيال حسن أفندي	اثنتي عشرة سكة
كريمة خاتون	ثلاث سكك
حسن بن الشيخ عبد الرحيم	ثلاث سكك
إبراهيم بن عبد الله الرومي	أربع سكك
أولاد مولانا عبد الرحيم أفندي	عشر سكك

أولاد أبي بكر الحاعوني [و]أولاد محمود آغا الكاتب[1] سبع سكك

أولاد الشيخ أبي بكر الحاعوني [و]أولاد محمود الكاتب [مكرر] ثمان سكك

المجموع ألف ومائتان وأربع وستون سكة حسنة

قُسم ما حواه بين أصحابه وقوبل كل طالب بطلابه، وأنا الفقير السيد عبد الله، القاضي بمكة المكرمة، أكرمه ربه ونعمه. (الختم): عبد الله بن محمد.

قُسم ووزع ما فيه بمعرفة العبد الفقير محمد، مير اللواء شيخ الحرم بمكة المشرفة وحاكم جدة. (الختم): محمد باشا.

---

١ كلمة "الكاتب" جاءت هنا بدون تنقيط.

اولاد حسن نصر نصحي

محمد بن محمود وصفيه بنت سيد صادق

نسيم عبد الرحمن بن علي اليمني

حد محمد بن يحيى بن منصور

اولاد يحيى المغاوري

جنانه حانوت الرومية

نور الصباح بنت عبد الله

اولاد سيد عبد الله بافقيه

نور الصباح بنت عبد الله

اولاد شيخ احمد الرزيحي

نور الصباح بنت عبد الله

عفيفه سهري حانوت بنت عبد الله

ميمونه بنت عبد الله بافقيه جوهر حانوت

سرور اغا بن عبد الله

اولاد يوسف سيحار

اولاد شيخ احمد بن موسى بن محمد

اولاد الاغا احمد بن يوسف المربع

اولاد يوسف الحداد المربع

السيد عمر بحر

اولاد عبد الرحمن افندي

ام كلثوم بنت ابراهيم بن راوات

اولاد محمد وحسين بن عبد الله

اولاد حسن الزواوي

اولاد شيخ عبد الرحمن بن عيسى اليمني

مرجان بن عوض

نور الصباح بنت عبد الله

اولاد شيخ خالد المالكي

عبد الرحمن افندي

كريمه حانوت

حسن بن شيخ عبد الرحيم

ابراهيم بن عبد الله الرومي

اولاد مولانا عبد الرحيم افندي

اولاد ابو بكر خواجه اولاد محمود اغا الكاتب

اولاد شيخ ابو بكر الخاعون واولاد محمود اغا الكاتب

دفتر تقسيمات صره شريفه خاقانيه روميه جديده له براي اهالي مكه مكرمه فرستاده شده در واجب سنه ثمان وسبعين والف

"دراسة وتحقيق لأقدم وثيقة وقف لخدمات الحجاج والمعتمرين منقوشة من القرن الثالث الهجري بمكة المكرمة"

إعـداد

د. محمد بن فهد الفعر

قسم التاريخ والحضارات الإسلامية

جامعة أم القرى

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

تمهيـــد:

تعتبر الكتابات والنقوش الإسلامية من أهم المصادر التي تعين المؤرخ والباحث وعالم الآثار على تحقيق بغيته في الوصول إلى الحقائق التاريخية التي لا تقبل الجدل أو النقاش، فهي تحقق لكل منهم، إضافة جديدة قد لا يجدها في المصادر الأخرى، وبصفة خاصة المصادر التاريخية، أو تصحح خطأً شائعًا بين الباحثين أو ترجح رأيًا على آخر، والأمثلة على ذلك تفوق الحصر ويعرفها المتخصصون في التاريخ والآثار والبحث العلمي بصفة عامة.

وهذه الوثيقة المنقوشة على حجر وتعود للقرن الثالث الهجري مثال حي على أهمية الكتابات الإسلامية المنقوشة التي تكمّل كثيراً من الحلقات المفقودة في تاريخنا الإسلامي بعامة وتاريخ مكة شرفها الله بصفة خاصة.

وعلى الرغم من استقصاء المصادر المكية المتاحة من مخطوط ومطبوع من قديم وحديث فإني لم أجد أي معلومة مهما كان حجمها عن هذه الوثيقة الوقفية، أو ما تضمنته من معلومات عن الأشياء الموقوفة أو عن إسم واقفها والمتصدق بها، مما يؤكد أهمية العناية بدراسة النقوش والكتابات الإسلامية بمختلف أنواعها التأسيسية أو التذكارية أو الأوامر والمراسيم السلطانية أو حج الوقف ووثائقه لأنها بما تضيفه من معلومات تعتبر في غاية الأهمية، فتنير للباحث والمؤرخ وعالم الآثار طريقه في البحث، ولذلك سوف تشتمل هذه الدراسة على الآتي:

أولاً: التعريف بالوثيقة وأهميتها ومكان وجودها :

نص هذه الوثيقة عبارة عن وقفية منقوشة بالخط الحجازي (المكي) المزوى الغائر على حجر بازلتي مستطيل الشكل من الأحجار البازلتية المتوفرة في جبال مكة المكرمة قياساته ٧٣سم عرضًا × ٤٣سم ارتفاعاً يعود إلى القرن الثالث الهجري، وقد عثرت عليه أثناء البحث الميداني عن نقوش مكة وكتاباتها بمتحف آثار الحرم المكي الشريف في شهر المحرم سنة ١٣٩٧ هـ قبل نقل المتحف إلى مقره الحالي في أم الجود بجوار مصنع كسوة الكعبة المشرفة.

ولم تتح لي دراسته خلال هذه المدة الطويلة لانشغالي بأعمال علمية أخرى.

ويتضمن النص وقف إحدى الدور وما يلحق بها من حوانيت تؤجر وتصرف غلتها أو ريْعُها على عمارتها ثم على السقاية التي أنشأها صاحب الوقف نفسه لسقاية الحجاج والمعتمرين وسائر المسلمين، ثم علي تجديد السقاية والعناية بها.

وتكمن أهمية هذه الوثيقة أيضاً، في أنها أقدم نص منقوش على حجر يمثل حجة وقف عثر عليها داخل مكة المكرمة تتحدث عن سقاية الحجاج والمعتمرين وسائر المسلمين الذين يأتون إلى مكة أو يقيمون بها، وتثبت في نفس الوقت عدم إقتصار خدمات الحجاج والمعتمرين وغيرهم من سائر المسلمين علي الحكومات الإسلامية المتعاقبة، وإنما شارك في هذه الخدمات أيضاً، الموسرون والأثرياء من المسلمين رجالاً ونساءً احتسابًا لوجه الله تعالي وابتغاء مرضاته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فقدان تاريخ الوثيقة أو عدم وجوده أصلاً لم يفقدنا معرفة موضوع الوقف فهي واردة بالوثيقة، كما أن مصاريف الوقف وغلته وعين الوقف قد حددتها الوثيقة بشكل واضح، كما أن أسلوب خط الوثيقة وطريقة تنفيذه واللواحق الزخرفية المتصلة بالحروف تجعلنا نؤكد أنه يعود إلي القرن الثالث الهجري، وهو ما سوف نوضحه عند تحليل حروف النص ومقارنته بنصوص أخرى تعود لنفس الفترة التاريخية.

النص: يتألف نص الوثيقة من عشرة أسطر على النحو التالي:

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تصدق به.

٢- إبراهيم بن أحمد بن الحسن بن حميد المعر [و].

٣- ف (دلى)(هكذا) تصدق بهذه الدار مع حوانيتها هذه.

٤- الثلاثة والسقاية بحقوق [ذالك] (هكذا) ومرافقه [سفله].

٥- وعلوه صدقة موقوفة مؤبدة لوجه [الله تعالي].

٦- والدار الآخرة تستغل على وجوه غلاتها وبنليانها] و[تصرف].

٧- غلتها لعمارتها ثم تصرف سائر غلتها في ما يشـ[رب].

٨- في هذه السقاية [...] ذلك وبين من أحب.

٩- من الشرب منه من [الحجاج] والمعتمرين وسائر المسلمين.

١٠- وكلما بعد من شيء من [مائها] جدد مكانه من ذلك.

ثانياً: الألقاب والعبارات الواردة بالنص:

يبدو أن صاحب النص قد ورد له لقب بعد كلمة [المعروف] في نهاية السطر الثاني وبداية السطر الثالث، ولكن كتابة اللقب غير واضحة في النص إما بسبب ضعف حفر الكلمة على الحجر أصلاً أو أنها تأثرت بعوامل التعرية مع طول الزمن شأنها شأن بعض كلمات أخرى في النص مما سوف نوضحه عند تحليل النص، وليس هناك ألقاب أخرى بالنص يمكن الحديث عنها.

أما العبارات الواردة بالنص عدا الأسماء والألقاب فهي عبارتان فقط هما:

أ- حوانيت: وهي جمع حانوت، والحانوت معروف وقد غلب إطلاقه علي حانوت الخمّار وهو يذكر ويؤنث، قال أبو حنيفة: النّسب إلي الحانوت حاني وحانوي ويطلق الحانوت علي الخمّار نفسه وكانت العرب تسمّي بيوت الخمارين الحوانيت[1].

ب- السقاية: وهي الموضع الذي يتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها، وسقاية الحاج سقيهم الشراب[2]، وقد عرفت السقايات بعد ذلك بالسُّبُل واشتهرت به فيما بعد[3].

أما صاحب الوقف وهو إبراهيم بن أحمد بن الحسن بن حميد

(١) ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار صادر بيروت، دون تاريخ جـ٢ ص٢٦

(٢) المصدر نفسه، جـ١٤، ص٣٩٢

(٣) تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء، القاهرة، طبعة البابي الحلبي جـ١، ١٩٥٦م، ص٣٣٧

فلم أعثر له على ترجمة فيما عرضت له من مصادر مكية أو غيرها، ولم يذكر مؤرخوا مكة وغيرهم شيئاً عن هذا الوقف أو صاحبه أو مكانه أو الدار أو الحوانيت أو السقاية، مما يجعل هذه الوثيقة الحجرية إضافة جديدة لتاريخ مكة شرفها الله، وحلقة مفقودة ظفرت بالعثور عليها والكشف عنها بفضل الله تعالى من تلك الحلقات التي ما زالت مفقودة في تاريخ البلد الأمين.

وأود أن أضيف هنا أن صاحب هذا الوقف لم يقصر صدقته على فئة معينة من المسلمين أو على جنس دون غيره أو طائفة دون سواها، بل جعلها وقفاً مؤبداً وصدقة على سائر المسلمين ابتغاء ثواب الله سبحانه وادخارًا للحسنات في الدار الآخرة.

ثالثاً: التعريف بالوقف والحديث عنه منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما اشترى عثمان بن عفان رضي الله عنه بئر رومة[1] وأوقفها على المسلمين.

والوقف في اللغة: الحبس والمنع، وفي الشرع: حبس الأصل

(١) بئر رومة كانت تقع في وادي العقيق الأصغر شمال غرب المدينة المنورة، وكان لها شهرة ذائعة الصيت في حلاوة مائها فكانت هي وبئر عروة من أهم مصادر الشرب لأهل المدينة، وقد وصفها كثير من المؤرخين قديمًا مثل ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م وحديثًا مثل عبدالقدوس الأنصاري الذي أشار إلى أن بئر رومة ومزرعتها هي من جملة أوقاف المسجد النبوي الشريف وهي التي تؤجرها، وكانت قد استأجرتها وزارة الزراعة السعودية في عام ١٣٩٢هـ وما قبله وجعلتها حديقة عامة. انظر:- ابن النجار، الدرّة الثمينة في تاريخ المدينة، مكة المكرمة، منشورات مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ص ص٢٤٤- ٢٤٥. عبدالقدوس الأنصاري، آثار المدينة المنورة، المدينة المنورة، منشورات المكتبة السلفية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م الطبعة الثالثة ص ص٢٤٤- ٢٤٥

وتسبيل المنفعة[١].

وهو مصدر قولك وقف الشيء إذا حبسه ومنه وقف الأرض على المساكين إذا حبسها[٢].

والوقف هو منع التصرف في رقبة العين مع بقاء عينها وجعل المنفعة لجهة من جهات الخير ابتداءً وهو الوقف الخيري أو انتهاءً وهو الوقف الأهلي[٣].

والوقف في الشريعة الإسلامية صدقة محرمة لا تباع ولا تشترى ولا توهب ولا تورث ويصرف ريعها إلي جهة من جهات البر[٤].

ونحن هنا لن نتحدث عن الوقف وأنواعه ومشروعيته لأن كتب الفقه والمؤلفات المتخصصة تكفلت بذلك، وهو موضوع واسع ومتشعب، والذي يهمنا هنا أن هذه الوثيقة الوقفية إضافة جديدة لتاريخ مكة المشرفة كما سبق أن أشرنا هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أننا سوف نقتصر في الحديث على بعض الأعمال الخيرية الخاصة بسقي الماء وشربه منذ أن أشترى الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله عنه بئر رومة بالمدينة وجعلها صدقة على المسلمين، فهو

(١) محمد أبوزهرة، محاضرات في الوقف، القاهرة، مطبعة مخيمر ١٩٥٩م ص٤٧

(٢) الأزهري، محمد بن أحمد الهروي (ت٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، جـ٩ ص٣٣٣

(٣) محمد أبوزهرة، المرجع السابق، ص٧ وانظر:-

محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر "دراسات تاريخية وثائقية" القاهرة، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ١٩٨٠م ص١١

(٤) محمد أبوزهرة، المرجع السابق، ص٩، وانظر محمد محمد أمين، المرجع السابق، ص١

رضي الله عنه أول من أقف الماء وجعله صدقة على عامة المسلمين، وذلك حين قدوم النبي صلي الله عليه وسلم إلى المدينة وهجرته إليها، فقد روى عنه رضي الله عنه أنه قال:" لما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم إلى المدينة وليس فيها ماء يستعذب غير بئر رومة، فقال من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه فيها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة، فاشتريتها من صلب مالي وجعلتها للمسلمين "[1].

ويشير ابن سعد في الطبقات إلى أنه ما إن أشترى عثمان رضي الله عنه بئر رومة وجعلها وقفاً على المسلمين وعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم بذلك حتى دعا لعثمان رضي الله عنه بقوله: "اللهم أوجب له الجنّة ثم دعا بدلو من مائها فشرب منه"[2]. ولذلك لا نستغرب أن يتسابق أثرياء المسلمين وميسوري الحال منهم حكاماً ومحكومين على حفر الآبار، وإجراء العيون وإنشاء البرك، وإقامة السقايات والسبل، وتمهيد الطرق وتأمينها بكل ما تحتاج إليه من مساكن

(١) هلال بن يحيى البصري (ت٢٤٥هـ)، أحكام الوقف، طبع حيدر آباد الركن ١٩٣٦م ص٦ وانظر أيضًا:-

أبوزيد عمر بن شبّه النميري (ت٢٦٢هـ)، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم شلتوت، جدّه، دار الأصفاني ١٣٩٣هـ جـ١ ص ص١٥٢- ١٥٣، جـ٤ص١١٩٠

السمهودي، علي بن أحمد (ت٩١١هـ)، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد – بيروت، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٩٦٨

الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص٤١

(٢) محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق احسان عبّاس، بيروت، دار صادر جـ١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ص٥٠٥- ٥٠٦

ومنازل وخانات وخلافها لخدمة الحجاج وغيرهم من المسلمين طلباً لثواب الله سبحانه وتعالي ورجاء لما عنده في الدار الآخرة، ومن هؤلاء إبراهيم بن أحمد بن الحسن بن حميد الوارد اسمه في النص، والذي قام بوقف دار بمكة المكرمة مع حوانيتها الثلاثة وجعلها صدقة موقوفة مؤبدة لوجه الله تعالى والدار الآخرة (كما ورد في النص)، وتأجيرها وصرف غلتها على إصلاح الوقف ثم على ما يشترى من ماء تزود به السقاية التي أنشأها أيضاً بمكة المكرمة ليشرب منها الحاج والمقيم والمعتمر وسائر المسلمين.

ويتبادر إلي الذهن هنا سؤال هام هو أين كان موقع هذه الدار والحوانيت والسقاية من مكة المكرمة، وهل كانت قريبة من الحرم المكي الشريف أم كانت بعيدة عنه؟

والواقع أنه لم يرد لهذه الدار وما يتبعها وكذلك السقاية أي ذكر عند مؤرخي مكة أو الرحالة أو غيرهم ولا إلى موقعها أو من أوقفها، وليس لدينا هنا سوى أن نجتهد برأينا المتواضع فنقول: لا شك أنها كانت قريبة من الحرم المكي الشريف الذي شملته التوسعة السعودية من كل جانب منذ أن بدأت سنة ١٣٧٥ هـ[1]، مع صعوبة تحديد الجهة التي كانت فيها الدار والسقاية الموقوفتان من الحرم الشريف، لأن وثيقة وقف الدار والسقاية الحجرية موضوع الدراسة قد حفظت مع بقية النصوص والكتابات التوثيقية التي كانت بداخل

(١) حسين عبدالله باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الطبعة الثانية، مصر، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ص٢٦٦

الحرم الشريف وبالأماكن المحيطة به، والتي أزيلت في التوسعة السعودية المشار إليها، وحفظت هذه الوثيقة مع ما حفظ من نصوص وكتابات أخرى في متحف الحرم الشريف حتّى يسر الله لي الإطلاع عليها عام ١٣٩٧هـ قبل نقل هذه النصوص والكتابات إلى مقرها الحالي في منطقة أم الجود على الطريق القديم بين مكة وجدة في مبنى خاص مجاور لمصنع كسوة الكعبة المشرفة.

رابعًا: التيسير على الحجاج وغيرهم في تأمين الماء

لقد كان التيسير على الحجاج والعمار وغيرهم من المجاورين والمقيمين هو الشغل الشاغل للخلفاء والسلاطين والملوك وغيرهم من الحكام منذ عهد الخلفاء الراشدين[١]، كما اهتم خلفاء بني أمية منذ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (٤١- ٦٠هـ) بإجراء ماء العيون إلى مكة حين جمع عشر عيون من أماكن مختلفة وأجراها إلى مكة[٢]، وكذلك فعل عبدالله بن عامر بن كريز (ت٥٧هـ) ابن خال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أول من أجرى عين عرفة وأول من اتخذ لها الحياض بعرفة[٣] في عهد الخليفة معاوية أيضًا.

---

(١) أبوالوليد الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، مكة المكرمة، دار الثقافة، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، جـ٢، ص٢٣٠ وانظر:-

ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، طبعة القاهرة، د.ت، ص٢٨٨

(٢) الأزرقي: المصدر السابق، جـ٢، ص٢٧٧

(٣) عن الجهود التي بذلها الخلفاء الراشدون منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤- ٦٤٤م) في تأمين المياه للحجاج والمسافرين انظر:- سعد بن عبدالعزيز الراشد، درب زبيدة، الرياض، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ص٣٤، ٤٢، ٤٣ وكان بالإمكان =

ويشير المؤرخ الطبري (ت٣١٠هـ) إلى أن الخليفة الوليد بن عبدالملك (٨٦- ٩٦هـ) قد كتب في السنة الثالثة من خلافته إلى والي المدينة المنورة عمر بن عبدالعزيز بأن يقوم بتسهيل العقبات وحفر الآبار بالمدينة، وبعث إلى ولاة الأقاليم الأخرى برسائل مماثلة[١].

كما وجد طريق الحج الشامي اهتمامًا خاصًا من قبل الوليد، فقد أمر أثناء خلافته بإقامة خزانات المياه على طول الطريق[٢].

ولم يقتصر الأمر على الوليد بن عبدالملك بل لقد اهتم الخليفة هشام بن عبدالملك (١٠٥- ١٢٥هـ/ ٧٢٤- ٧٤٣م) بأمر الماء وتأمينه للحجاج والمسافرين على طريق الحج الشامي، إذ عثر في قرية حازم بالقرب من بلدة السويداء وعلى بعد سبعة أكيال منها على نقش مؤلف من خمس أسطر بالخط الكوفي تشير إلى بناء بركة للمياه على الطريق بين دمشق والجزيرة العربية، ويحتمل أن تكون هذه البركة ضمن مشروع كبير خطط له تلبية لاحتياجات الحجاج من المياه[٣]. أما في العصر العباسي الذي يرجع إليه نص وثيقة الوقف

=

الحديث عنها ولكنها حظيت باهتمام وتقصي من باحث متمكن أرى أن العودة للكتاب المشار إليه أفضل من إعادتها هنا وتكرارها.

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف ١٩٧٩م، جـ٦، ص٤٣٧

(٢) ابن الفقيه، كتاب البلدان، تحقيق دي جويه، ليدن ١٨٨٥م، ص١٠٦. وانظر: سعد الراشد، المرجع السابق، ص٣٩

(٣) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٣٩

(موضوع الدراسة) فقد بذل الخلفاء العباسيون جهودًا ضخمة لتأمين الماء للحجاج والمسافرين والمقيمين والمجاورين على حد سواء، فقاموا ببناء الأحواض وحفر الآبار وإنشاء البرك على طول الطريق بين مكة والكوفة[١].

وإذا كان أبوجعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٢- ٧٧٥) أول من اهتم بتأمين المياه وبناء الخزانات وإقامة الحصون والمنازل على طول الطريق بين مكة والكوفة فإن عصر ابنه الخليفة محمد المهدي (١٥٨- ١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٦) يعتبر العصر الذهبي لمن سبقه من الخلفاء للخدمات التي قدمت للحجاج وبصفة خاصة تأمين الماء لهم، ففي سنة ١٦١هـ أصدر المهدي أمره بتعيين يقطين بن موسى أحد كبار رجال الدولة العباسية (ت ١٨٥هـ) مسؤولاً عن إدارة مصانع الماء الممتدة من بغداد إلى مكة، وأوكل إليه إنشاء البرك وتجديد الأميال وإقامة المرافق وظل يقطين مسؤولاً عنها لمدة عشر سنوات حتى عام ١٧١هـ، أي حتى بعد وفاة الخليفة المهدي سنة ١٦٩هـ[٢].

ويشير صاحب كتاب المناسك وطرق الحج وهو من رجال القرن الثالث الهجري إلى عدد من الأماكن التي حفرت فيها الآبار وأنشئت البرك والأحواض في عهد الخليفة المهدي وغيرها من

(١) المرجع نفسه، ص٤٧

(٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٧، ص٤٨٢، وعن يقطين بن موسى والمهمات التي أوكلت إليه وورود إسمه في أحد نقوش المسجد الحرام المؤرخ بسنة ١٦٧هـ، انظر:-

محمد بن فهد عبدالله الفعر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، جدّة، تهامة للنشر ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ص٢٠٤- ٢٠٥

المرافق[1]، ولم يقتصر اهتمام الخليفة المهدي على طريق الحج، بل في داخل الحرم المكي الشريف، فقد شعر بنقص ماء زمزم فيما بين سنتي ١٦٦- ١٦٨هـ، ٧٨٢- ٧٨٤م فقام بحفرها عدة أذرع وأنشأ بجوارها حوضًا من الرخام يملأ بالماء لكل من أراد الوضوء من ماء زمزم[2]، من حجاج وغيرهم، كما قام بحفر بئر بالقرب من باب الوداع للغرض نفسه[3].

ولم يقتصر الاهتمام بتوفير المياه للحجاج وغيرهم على الخلفاء العباسيين أو رجال الدولة فيها، بل شارك في ذلك غيرهم من الموسرين والأثرياء والعلماء ونساء الخلفاء وأمهاتهم وغيرهم، ففي النصف الأول من القرن الثاني الهجري حفر المحدث سليمان بن مهران المعروف بالأعمش (ت١٤٨هـ) بئرين بمنطقة الخشنة بالقرب من نخلة الشامية (الشرائع حاليًا) في المكان الذي يجتمع فيه حجاج العراق واليمن وعمان وهجر وغيرهم، وجعل هاتين البئرين صدقة لأبناء السبيل وغيرهم ممن يردهما من خلق الله (على حد تعبير نصهما المنقوش). ونقش لذلك نصًا تأسيسيًا ظل في موقعه إلى أن نقل إلى متحف قسم

---

(١) أبوإسحق الحربي، كتاب المناسك وطرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ص٢٨٨- ٣٢٨

(٢) الأزرقي، المصدر السابق، جـ٢، ص ص١٠٠- ١٠١ وانظر:-
سليمان بن صالح كمال، إمارة الحج في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٤٤

(٣) الفاسي، شفاء الغرام جـ١ص٢٤٨، وانظر سليمان كمال، المرجع السابق، ص٣٤٤

الحضارة والنظم الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة[١].

أما أمهات الخلفاء وزوجاتهم فقد ضربن بسهم وافر في الأعمال الخيرية وبصفة خاصة تأمين الماء لسقاية الحجاج والعمار والمقيمين وغيرهم على حد سواء، بدءاً من الخيزران زوجة الخليفة المهدي (ت١٧٣هـ) التي أمرت بإنشاء سقاية للحجاج وغيرهم بفناء دار الأرقم بن أبي الأرقم بالقرب من المسجد الحرام، وبإنشاء سقاية أخرى عند باب الحناطين أحد أبواب المسجد الحرام[٢]، كما قامت مولاتها خالصة بنثل بئر وتنظيفها وترميمها كانت تقع بين مأزمي عرفة عرفت باسمها فيما بعد[٣].

ومنذ عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) وهو آخر من حج من خلفاء بني العباس وأكثرهم حجاً لبيته الحرام، اتخذت الأعمال الخيرية وبصفة خاصة تأمين الماء للحجاج والمسافرين وغيرهم منحى آخر لتردده على مكة وتكرار حجه تسع سنين أكبر الأثر في الاهتمام بتأمين الماء وإنشاء البرك والخزانات على طول طريق الحج من بغداد إلى مكة، ما جعل كثيراً من المنشآت تسمى باسمه من بعده[٤].

ولم يقتصر جهده واهتمامه على تأمين الماء في طريق الحج

(١) عن هذا النص التأسيسي والدراسة التي أجريت عليه انظر، محمد فهد الفعر، تطور الكتابات والنقوش، ص ص١٩٦- ٢٠٣

(٢) الأزرقي، المصدر السابق، ص ص٩٥، ٢٩٤

(٣) سليمان كمال، المرجع السابق، ص٢٤٦

(٤) سعد الراشد، درب زبيدة، ص٥٠

ويستنتج من هذا أن الخليفة عمر قد اهتم اهتمامًا بالغًا بالطريق بين المدينة ومكة، وأن وسائل المواصلات كانت متيسرة على نطاق واسع[١].

أما في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه (٢٣- ٣٥هـ/ ٦٤٤- ٦٥٦م) فقد قام والي البصرة في عهده عبدالله بن عامر بن كريز بحفر الآبار[٢]، وإنشاء العديد من الاستراحات على طول الطريق من البصرة إلى مكة، وألحق بها الحدائق وأشجار النخيل فكانت النباج والقريتين وبستان بني عامر من بين تلك المحطات التي أنشأها[٣]، بل إنه زود طريق البصرة – مكة بالأسواق اللازمة حتى يكون في متناول المرأة السفر على دابتها وتسير من موقع إلى آخر في راحة ويسر حتى تصل إلى مكة[٤].

ومما يلفت النظر أن المصادر لم تسعفنا بأي معلومات عن الخدمات التي كانت تقدم للحجاج والمسافرين والمقيمين بمكة وغيرهم في عهد الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٣٥- ٤٠هـ/ ٦٥٦- ٦٦١م) الذي نقل مقر الخلافة من المدينة المنورة إلى الكوفة، وربما كان للأحداث السياسية التي وقعت في عهده وانتهت باستشهاده رضي الله عنه أكبر الأثر في ذلك.

وعلى الرغم من شح المعلومات التي تشير إلى تقديم خدمات

---

(١) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٣٥

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٤، ص٢٦٤

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ١، ص٤١٤، جـ٢، ص٣٣٦، جـ٥، ص٢٥٦

(٤) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٤٣

للحجاج وغيرهم ممن يزور مكة أو يقيم بها في العصر الأموي، إلا أن الأمر الذي لاشك فيه هو أن خلفاء الأمويين كانت لهم كثير من المآثر والخدمات، فعبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٥- ٧٠٥م) هو أول من أنشأ محطة الثعلبية إحدى محطات طريق الحج الرئيسية على طريق مكة – الكوفة[١]، بل إن عبدالملك بن مروان هو أول من أمر بوضع الأميال على الطريق لتحديد المسافات بين كل مرحلة وأخرى[٢]، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل يشير البلاذري إلى أن عبدالملك كتب إلى عامله على مكة يأمره بعمل ضفائر للدور الشارعة على الوادي، وضفائر للمسجد الحرام وعمل الردم على أفواه السكك لتحصين دور الناس بعد الفيضانات والسيول التي اجتاحت مكة المكرمة في عهده وتسببت في خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات[٣].

والحقيقة أننا اشرنا عند حديثنا عن تأمين الماء للحجاج وغيرهم في الصفحات السابقة إلى بعض جهود الأمويين لتأمين الماء للحجاج وغيرهم بمكة، أما ماعدا ذلك من إنجازات وخدمات وأعمال أخرى في مكة على وجه الخصوص فهي غير متيسرة في الوقت الحالي وربما تكشف أعمال المسح والحفر الأثري عن أشياء تعطى صورة

(١) الحربي، كتاب المناسك، ص٢٩٦

(٢) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٤٠

(٣) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الطباع، بيروت، ١٩٥٨م، جـ١، ص٧٢

واضحة وجلية في هذا الإقليم الهام وغيره من الأقاليم في المستقبل[١].

أما في العصر العباسي فإننا نلاحظ أن الخلفاء العباسيين منذ قيام دولتهم سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م، كانوا يتولون إمارة الحج بأنفسهم في بعض السنوات أو يسندونها إلى أحد كبار رجال الدولة العباسية سواء كانوا من ولاة الحرمين الشريفين أم من غيرهم[٢]، كما كانوا ينفقون على شئون الحج وتجهيز أمرائه في كل موسم بانتظام، وكانت هذه النفقات تخصص من ديوان النفقات في عاصمة الخلافة بغداد، أو من بيت مال الخاص الذي كان من مهامه الإنفاق على موسم الحج وكل ما يتعلق بذلك[٣].

بل إن خلفاء بني العباس ابتداء من أبي جعفر المنصور كانوا يرسلون الأموال لتنفق على أهل الحرمين في مكة والمدينة، فقد أعطى المنصور في إحدى سنوات حكمه عبدالله بن الحسن بن الحسن ألف ألف درهم ليقسمها على أهل الحرمين[٤].

وعلاوة على ذلك فإن أبا جعفر المنصور كان يتولى إمارة الحج بنفسه خلال السنوات الخمس التي حجها منذ توليه الخلافة سنة ١٣٦هـ حتى وفاته سنة ١٥٨هـ، وكان يحمل معه في كل موسم

---

(١) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٤٠

(٢) سليمان كمال، إمارة الحج، ص٣٧٤

(٣) الصابئ، أبوالحسين هلال بن الحسن (ت٣٥٩هـ) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، نشر المجمع العلمي العراقي، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص٣٧

(٤) العسكري، أبوهلال عبدالله بن سهل، الأوائل، تحقيق وليد قصاب ومحمد المصري، الرياض، منشورات دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، جـ١، ص٣٥٨

الكثير من الأموال النقدية والعينية ويوزعها على أهل مكة والمدينة، رغم ما كان يوصف به من الشح والبخل وجمع المال، ولم يتوقف عن صرف هذه الأموال وتوزيعها إلا في سنة ١٤٥هـ بسبب ثورة محمد النفس الزكية[1]، وتشير المصادر أيضًا إلى أن أبا جعفر المنصور قد بعث في إحدى السنوات إلى أمير الحرمين زياد بن عبدالله الحارثي بمال وفير وأمره بتفريقه في القواعد من النساء والعميان والأيتام في مكة والمدينة وأصبح جراية تنفق عليهم في كل سنة[2].

أما الخليفة المهدي فقد فرق الكثير من الأموال وقام بتوزيع كثير من الكساوي على سكان الحرمين الشريفين حينما حج سنة ١٦٠هـ/ ٧٧٦م حتى قيل إن ما فرق من الثياب بلغ مائة وخمسون ألف ثوب[3].

وفي سنة ١٦١هـ أمر الخليفة المهدي بتجديد الأميال وأوكل أمر ذلك إلى يقطين بن موسى، وظل يقطين مسؤولاً عنها حتى عام ١٧١هـ[4].

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، جـ١، ص٢٥٣

(٢) البيهقي، إبراهيم بن محمد (ت٣٢٠هـ)، المحاسن والمساويء، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٥٨٧ وانظر، الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، جـ٤ تحقيق فواد سيد، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٣٨١هـ/١٩٦٢م، ص ص٤٥٧- ٤٥٨

(٣) الفاسي، العقد الثمين جـ٢، ص٧٧ وانظر:-

ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م، جـ٢، ص٣٦

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٧، ص٤٨٣

وفي سنة ١٦١هـ أيضًا أنشأ المهدي منازل على طول الطريق بين بغداد ومكة أوسع من تلك التي أنشأها عمه السفاح وترك منازل أبي جعفر على حالها[1].

والخليفة المهدي هو صاحب التوسعتين الشهيرين للحرم المكي الشريف والتي بدأت منذ سنة ١٦١هـ وانتهت سنة ١٦٧هـ[2].

ولم يقتصر الأمر على الخليفة المهدي بل إن زوجته الخيزران قد أنفقت كثيرًا من الأموال على سكان المدينتين المقدستين مكة والمدينة حين حجت سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م[3].

أما هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩م) فكان من أكثر خلفاء بني العباس اهتمامًا بالخدمات التي قدمت للحجاج وغيرهم ممن يزور مكة أو يقيم بها، فقد تولى إمارة الحج تسع سنين كان ينفق في كل سنة منها الكثير من الأموال على سكان الحرمين وفقراء الحجيج كما كان يحجج عددًا من العلماء والفقهاء على

(١) المصدر نفسه، جـ٨، ص١٣٦

(٢) لقد تمكنت بفضل الله وتوفيقه من الوصول إلى النقوش الخاصة بتوسعة المسجد الحرام في عهد الخليفة المهدي والتي حددت نهاية العمارة بشكل قاطع سنة ١٦٧هـ من خلال أربعة نقوش سبق لي أن قمت بدراستها، انظر:-

محمد فهد الفعر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، ص ص٢٠٢- ٢١٢

(٣) ابن تغري بردي، المصدر السابق، جـ٢، ص ص٦٨- ٧٢، وانظر:-

سليمان كمال، إمارة الحج، ص٣٨١

نفقته الخاصة[١].

بل إن هارون حين حج سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م إصطحب معه ابناه الأمين والمأمون وأنفق هو وولداه أموالاً طائلة على أهل مكة سميت بالأعطيات الثلاث[٢].

أما السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد فقد كان لها من الأعمال الجليلة ما لا يحصى أشرنا إلى بعضها عند الحديث عن تأمين المياه للحجاج والمقيمين في مكة وعلى طول طريق الحج، فضلاً عما أنشأته من منازل ومرافق ليستريح بها الحجاج[٣]، بل قيل إنها أنفقت في إحدى حجاتها على سكان الحرمين الشريفين ما يقرب من أربعة وخمسين مليون درهم[٤].

---

(١) الطبري، المصدر السابق، جـ٨، ص٣٤٧ وانظر:-

تقي الدين المقريزي، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م، ص٣٥

(٢) الجهشياري، أبوعبدالله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ص٢٢١- ٢٢٢ وانظر:-

ابن طباطبا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ص٢٠٠- ٢٠١ وانظر أيضًا:-

ابن فهد، عمر بن محمد بن محمد (ت٨٨٥هـ) اتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، نشر مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى ١٤٠٣هـ، جـ٢، ص٢٣٢

(٣) اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، ص٢٦

(٤) الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، ١٣٠١هـ، جـ١٤، ص٤٣٣ وانظر:-

الذهبي، أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جـ١٠، ص٢٤١

كان على علم كاف بحال الطريق وخاصة الطريق الموصلة إلى العراق فقدم نصيحته لقائد جيش المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بالأماكن التي يعسكر فيها[١].

ولما توسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهد عمر رضي الله عنه نتيجة الفتوح ازداد عدد المسلمين فترة خلافته ونتج عن ذلك ظهور مدينتين إسلاميتين جديدتين هما البصرة والكوفة في سنتي ١٦هـ، ١٧هـ، كان لابد من ربطهما بطرق برية آمنة وتم ذلك فعلاً في عهد عمر رضي الله عنه مما مكّن المسلمين وجنودهم الذين كانوا يحاربون في العراق وفارس من تأدية فريضة الحج أو العودة إلى ذويهم بيسر وسهولة[٢].

ولاشك أن خلفاء بني أمية قد بذلوا جهودًا كبيرة لتأمين الطرق والمواصلات بين مختلف بلدان الخلافة الإسلامية بعد أن توسعت حدود الدولة الإسلامية في العصر الأموي نتيجة تسوالي الفتوحات وخاصة بين دمشق العاصمة والأراضي المقدسة[٣].

وفي العصر العباسي الأول الذي نحن بصدد دراسة نص وثيقة الوقف الذي نقشت فيه – كان الخلفاء يعينون أمراء للحج في كل موسم جعلوا من أول واجباتهم حراسة قافلة الحج من مخاطر السّلب والنهّب عند اختلال الأمن بالطرق إلى أن يبلغوا بها الأراضي المقدسة

(١) الطبري، المصدر السابق، جـ٣، ص ص٤٨٦- ٤٨٨ وانظر:- سعد الراشد، درب زبيدة، ص٤٢

(٢) سعد الراشد، درب زبيدة، ص٤٢

(٣) المرجع نفسه، ص٤٢

والعودة منها بأمان[١].

وكان خلفاء بني العباس يكلفون من يتولى ولاية الطريق بحفظ الأمن وفي نفس الوقت توفير الخدمات فإذا أثبت والي الطريق كفاءة ارتفع قدره وأصبح مشاركًا في أحداث الموسم مع أمير الحج[٢]، كما كانوا يراعون أن يكون مقر والي الطريق في منتصف الطريق، ولذلك كانت محطة "فيد" من المحطات الرئيسية على طريق الحج بين مكة والكوفة نظرًا لموقعها المتوسط والاستراتيجي في وسط الجزيرة العربية، كما كان لها أهمية خاصة عند الحجاج فكانوا يودعون أزوادهم وممتلكاتهم عند أهل فيد حين ذهابهم للحج ومن ثم يأخذونها في طريق العودة[٣].

وقد بلغ من ازدهار هذه المحطة وأهميتها أنها كانت تحاكي البصرة والكوفة وباقي المدن الإسلامية التي أنشئت في صدر الإسلام[٤].

ونظرًا لموقعها المتوسط فقد كان والي الطريق المقيم "بفيد" يستطيع الحركة في أي اتجاه بسرعة يستطيع معها القبض على المفسدين بالطريق وذلك حفظًا للأمن يساعده في ذلك أن فيد تعتبر حلقة وصل بين بغداد ومكة المكرمة[٥]. وقد ظلت طرق الحج آمنة في

---

(١) سليمان كمال، المرجع السابق، ص٢١٢

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٩، ص ص١٤٠، ١٩٦

(٣) سعد الراشد، درب زبيدة، ص١٩٥

(٤) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(٥) سليمان كمال، إمارة الحج، ص٢١٣

العصر العباسي الأول، ولم يسجل المؤرخون أي أحداث تخل بأمن الطرق طيلة عهد الخليفة أبوالعباس السفاح من سنة ١٣٢- ١٣٦هـ[1].

أما الخليفة أبوجعفر المنصور ١٣٦- ١٥٨هـ فقد كان مهتمًا بالطرق اهتمامًا بالغًا فكان يقسم وقته في العمل فيكون صدر نهاره في مطالعة أمور الدولة وأمن السُّبل وحفظ أرواح السالكين من حجاج وغيرهم، وإذا صلى العصر جلس إلى أهل بيته وإذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما يرد إليه من كتب الثغور والأطراف إلى أن يمضي ثلث الليل قام إلى فراشه...الخ[2].

ويروى أن أبا جعفر المنصور لم يكتف بتولي إمرة الحج بنفسه عدة سنوات بل إنه أمر في سنة ١٤٥هـ/ ٦٧٢م بمنع الناس من الحج خشية أن يتعرض الحجاج لأي أذى بسبب الفتن والاضطرابات التي صاحبت ثورة محمد النفس الزكية، وكتب إلى عماله في مصر والشام بذلك[3]، وكان لهذا الإجراء أثره على الناس التي كانت تريد الحج، فضلاً عن تأثيره على أهل الحرمين الشريفين من الناحية الاقتصادية[4].

---

(١) المرجع نفسه، نفس الصفحة.

(٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٨، ص٧٠ وانظر:-
ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٤٧

(٣) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، دار صادر، دون تاريخ، جـ١، ص٣٠٧ وانظر:-
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ٢، ص ص١- ٣

(٤) سليمان كمال، المرجع السابق، ص٢١٧

وعلى الرغم من الأحداث الكثيرة التي وقعت في عهد أبي جعفر المنصور وكان لها أثرها البالغ على أمن طرق الحج مثل ثورة النفس الزكية المشار إليها، أو ما قام به الأكراد من إفساد وقطع للطرق حول الموصل والجزيرة وخشية الناس من الخروج للحج، أو ما قام به الأحباش من هجوم مباغت وأعمال سيئة عند إغارتهم على جده سنة ١٤٨هـ، وإرسال المنصور جيشًا لمحاربتهم، إلا أن المنصور بحزمه وحنكته وخبرته في الحكم استطاع أن يفرض الأمن ويعيد الأمان إلى طرق الحج[1].

ونستدل من وصيته لابنه المهدي سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م – وهي آخر سنة تولى فيها إمارة الحج بنفسه وتوفي فيها قبل إتمام نسكه – على ما كان يتمتع به أبوجعفر المنصور من حنكة وقوة ودهاء وذلك حين يقول في وصيته: "واشحن الثغور بالمسالح واضبط الأطراف وأمِّن السُّبل وسكِّن العامة وادخل الرفق عليهم وادفع المكاره عنهم"[2].

وعلى الرغم من أن طرق الحج كانت آمنة بصفة عامة خلال العصر العباسي الأول[3] ١٣٢- ٢٣٢هـ إلا أن ذلك لم يمنع ظهور بعض المشكلات الأمنية التي تصدى لها الخلفاء بكل حزم فنجد الخليفة

(١) ابن خياط، أبوعمر خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري، الرياض، نشر دار طيبة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ص٤٢٥- ٤٣١

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٥، ص ص٤٣- ٤٤ وانظر:

العصامي، عبدالملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها، جـ٣، ص ص٢٦١- ٢٦٢

(٣) سعد الراشد، المرجع السابق، ص٩١

المهدي يختار أفضل رجاله لإصلاح طريق العراق – الحرمين الشريفين وضبط الأمن فيها وهو يقطين بن موسى الذي عرف بحزمه وقدرته على ضبط الأمن في طريق الحج بين بغداد ومكة وإصلاح الطريق وتعميره حتى أصبح من أرفق الطرق وآمنها ومكث يقطين واليًا على الطريق مدة أحد عشر سنة من ١٦٠- ١٧١هـ أي حتى بعد وفاة المهدي سنة ١٦٩هـ[1] رغم اعتداء عرب بادية البصرة على طريق الحج في موسم سنة ١٦٧هـ مما اضطر الخليفة إلى إرسال جيش لمحاربتهم ومواجهة جيش المهدي لحرب شرسة من هؤلاء البادية بسبب تكاثر العربان وازداد شرهم وكثر إفسادهم يساعدهم في ذلك معرفتهم بمسالك الصحراء وكان هذا أول إعتداء مباشر على طريق الحج العراقي في العصر العباسي الأول استطاع المهدي بعد جهد القضاء عليه[2].

أما الخليفة هارون الرشيد فقد استتب أمن طرق الحج في عهده لشدة اهتمامه بذلك بل إنه حاول أن يوصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق شق قناة توصل بين البحرين وتسهل نقل الحجاج والطعام والميرة من حوض البحر المتوسط إلى البحر الأحمر ومن ثم إلى الحرمين الشريفين إلا أنه أشير عليه بعدم شق هذه القناة خشية أن يستخدمها الروم بسفنهم للهجوم على أرض العرب ويكون في ذلك

(١) الطبري، تاريخ جـ٨، ص١٣٦ وانظر:-
ابن خياط، تاريخ، ص ص ٤٢٩- ٤٣٠

(٢) ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص٦٩ وانظر:-
سليمان كمال، إمارة الحج، ص ص٢٢٢- ٢٢٣

خطرًا على سلامة الحجاج والمعتمرين بل على الحرمين الشريفين ومن فيه من مقيمين ومجاورين خاصة أن هجمات الروم كانت مباغتة وسريعة، ولذلك عدل الرشيد عن هذه الفكرة بعد اقتناعه بما قد تحتمله من مخاطر[1].

بل إن مدينة جدة أصبحت دار رباط في عهد الخليفة هارون الرشيد وذلك منذ أواخر سنة ١٨٢هـ بسبب هجمات الأحباش المفاجئة، وكان الفضل في جعل جدّه مكانًا لمرابطة المجاهدين يعود إلى أمير مكة في ذلك الوقت عبد الله بن محمد بن إبراهيم العباسي للجهود التي بذلها في سبيل طرد الأحباش وإبعاد خطرهم، بل إن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد بعد أن استأذن الرشيد في أداء العمرة في رمضان سنة ١٨٥هـ وأدى العمرة توجه إلى جدّه بنيّة الرباط فرابط بها إلى موسم الحج فحج وعاد إلى العراق[2].

ولم يقتصر اهتمام الرشيد على أمن طريق العراق الحرمين الشريفين، بل وجد طريق الشام اهتمامًا خاصًا منه حين عين أخاه إبراهيم أميرًا للحج بالإضافة إلى ولايته على دمشق وأمره بحفظ الأمن

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن حسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، دار المعرفة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، جـ٢، ص ص٢٦٣- ٢٦٤ وانظر:-
السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، بيروت ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص١٦٦ وانظر أيضًا:-
سليمان كمال، المرجع السابق، ص٢٢٦

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٨٧، وانظر:-
ابن ظهيره، جمال الدين محمد بن جار الله، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص٨١

بطريق الحج وقد أثبت إبراهيم كفاءة عالية في ذلك، وظل طريق الحج الشامي وبلاد الشام آمنة تمامًا في عهد ولايته[1].

كما كان لطريق الحج اليمني نصيبه من إهتمام الرشيد حين عيّن مولاه حمّاد البربري واليًا على اليمن وظل واليًا عليها إلى سنة ١٩٣هـ فقام حمّاد بتأمين السّبل والظفر بالخارجين على أمن الدولة وخاصة الهيصم بن عبدالمجيد الهمزاني الذي أخاف السبل وخاصة طريق الحج اليمني واستطاع حمّاد القبض عليه ومن معه وبعث به إلى الرشيد في بغداد حيث قام بضرب عنقه ومن معه من المفسدين[2].

والحقيقة أن ما أشرنا إليه من حوادث اختل فيها أمن طرق الحج في عهد الخليفة هارون الرشيد إنما هي مجرد أمثلة سقناها لندلل على ما بذله هذا الخليفة وولاته من جهود في قمع المفسدين في فترة خلافته التي إمتدت ثلاثًا وعشرين سنة من ١٧٠- ١٩٣هـ وأعاد لطرق الحج أمنها وأمانها.

أما في عهد الخليفة الأمين بن هارون الرشيد (١٩٣- ١٩٨هـ/ ٨٠٨- ٨١٣م) وخاصة في أواخر خلافته ظهر الخلاف بينه وبين أخيه المأمون، وانعكس أثر ذلك على أمن الطرق، فقد استغل العابثون والمفسدون هذا الخلاف فعاثوا في الأرض فسادًا، كما ظهرت كثير من الفتن والقلاقل حول المدينة المنورة مما جعل أمير الحرمين داود بن

(١) ابن خياط، تاريخ، ص٤٥٧ وانظر:-
الذهبي، سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص ص٥٥٧- ٥٥٩ وانظر أيضًا:-
سليمان كمال، المرجع السابق، ص٢٢٧

(٢) ابن خياط، تاريخ، ص٤٦١

عيسى بن موسى يجهز جيشًا بقيادة محتسب المدينة المنورة عبدالله بن محمد الزبيري لمحاربة هؤلاء المفسدين فاستطاع الزبيري الانتصار عليهم وكف أذاهم عن الحجاج والمعتمرين والمجاورين[1]، بل إن الحجاج وغيرهم من المعتمرين والمقيمين قد عانوا أشد المعاناة في موسم حج سنة ١٩٩هـ بسبب خروج أبي السّرايا السّري بن منصور داعية لابن طباطبا الشيعي، واستولى على الكوفة وأرسل أحد قواده وهو حسين بن حسن الأفطس لإقامة الموسم واستطاع الأفطس أن ينحي أمير الحج من قبل الخليفة داود بن عيسى عن إمارة الحج في تلك السنة ووقف الناس بعرفة بدون إمام كما لم يستطع حجاج خراسان والجزيرة وبغداد أن يحجوا في هذه السنة بسبب هذه الفتنة[2]، ولذلك اضطر الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م) أن يولي إمارة الحج في سنة ٢٠٠هـ أخاه المعتصم ويأمره بإعادة الأمن وبسط نفوذ العباسيين مرة أخرى على الحرمين الشريفين، وفعلاً استطاع المعتصم أن يعيد الأمن لطرق الحج وأن ينشر الأمان في نفوس الحجاج والمجاورين والمقيمين وأن يقبض على حسين الأفطس ومحمد بن جعفر ومن معهما وأن يبعث بهما إلى الخليفة المأمون في خراسان[3].

---

(١) ابن بكار، الزبير بن بكار بن عبدالله، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر، القاهرة، مطبعة المدني ١٣٨١هـ/١٩٦١م جـ١، ص٢٥٢ وانظر أيضًا:-

الطبري، تاريخ، جـ٨، ص ص ٣٧٣، ٤١٧

(٢)ابن خياط، تاريخ، ص ص٥٣١- ٥٣٢ وانظر: -

سليمان كمال، إمارة الحج، ص٢٣٣

(٣) ابن خياط، تاريخ، ص٤٧٠ وانظر، الطبري، تاريخ، جـ٨، ص٥٤١ وانظر أيضًا:-

=

وقد عرف عن المعتصم بالله (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م) شدة اهتمامه بأمن طرق الحج يؤكد ذلك قول محمد بن علي الإخباري حين سأله الخليفة القاهر بالله عن الخليفة المعتصم فقال: "... وعم أفضاله وأمنت به السبل في أيامه"[1]، وكان المعتصم لا تأخذه بالمفسدين وقطاع الطرق شفقة ولا رحمة[2].

كما اشتهر الخليفة الواثق بالله (٢٢٧- ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ -٨٤٧م) بمناهضته لعدد من قبائل الحجاز الذين جعلوا طرق الحج غير مأمونة لكثرة غاراتهم وسلبهم ونهبهم لقوافل الحجيج وخاصة في الأقاليم الواقعة حول الأراضي المقدسة وخاصة سنة ٢٣٠هـ، ولذلك نجده يسند أمر قمع هذه القبائل إلى قائده التركي بغا الكبير الذي انتصر أولاً على قبيلة بني سليم، ثم شن حملات متتالية على قبائل نمير وبني هلال سنة ٢٣٢هـ التي كانت تتربص دائمًا بحجاج بيت الله الحرام بالسلب والنهب وغير ذلك[3].

ولم يكتف الخليفة الواثق بحرب هذه القبائل، بل إنه ولىَّ رجلين من كبار رجال الدولة الأشراف على الطريقين الرئيسيين

=

الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ٢، ص ص١١٢- ١١٥

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ٤، ص٣١٩

(٢) سليمان كمال، إمارة الحج، ص ص٢٣٦- ٢٣٧

(٣) الطبري، تاريخ جـ٩، ص ص١٢٩- ١٣٥ وانظر ابن الأثير، الكامل، جـ٧، ص ص١٩- ٢٩ وانظر أيضًا:- سعد الراشد، درب زبيدة، ص٥٢

للحج، أحدهما اسحق بن إبراهيم بن أبي حميضة فجعله واليًا على اليمامة والبحرين ومشرفًا على طريق البصرة – مكة[١]، وجعل عمر بن فرج الرخجي مشرفًا على طريق الكوفة – مكة[٢].

أما المتوكل على الله (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م) فلم يكن أقل شأنًا ممن سبقه من الخلفاء واتبع نفس سياسة أخيه الواثق، فقد عين مشرفين على طرق الحج من أهل الكفاءة والثقة، فقد أبقى علي يحيى بن هرثمة الذي كان مشرفًا على طريق الكوفة منذ عهد أخيه الواثق حتى قدومه من مكة سنة ٢٣٣هـ/ ٨٤٧م وقد اصطحب معه محمد بن علي العلوي الذي قبض عليه في المدينة المنورة[٣]، كما عين المتوكل جعفر بن دينار مشرفًا أيضًا على طريق الكوفة منذ سنة ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م[٤] وكان قبلها واليًا على اليمن منذ سنة ٢٢٤هـ وتولى الإشراف بضع سنين حتى ولى المتوكل بدلاً منه أبو الساج سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م، واستطاع أبو الساج أن يقضي على فتنة محمد بن صالح الحسني ضد المتوكل في المدينة المنورة[٥]. بل إن طريق مكة – المدينة قد وجد عناية خاصة من الخليفة المتوكل، فبالإضافة إلى تزويده بالمرافق اللازمة وحفر الآبار زوده أيضًا بالأعلام والأميال،

---

(١) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١٤٠

(٢) سعد الراشد، درب زبيدة، جـ ٥٢

(٣) الطبري، تاريخ، جـ٩، ص١٦٣

(٤) نفس المصدر، نفس الجزء، ص٢١٠

(٥) نفس المصدر، نفس الجزء، ص٢١٠، وانظر:-

ابن الأثير، الكامل، جـ٥، ص ص٢٩٣- ٢٩٨

كما أمر ببناء الحصون في بعض الأماكن الهامة على طول الطريق[1].

أما أمن طرق الحج والمرافق والإصلاحات بعد عهد المتوكل فقد تدهورت تدهورًا كبيرًا وأصبح من الصعب متابعة الأحداث الكثيرة والكبيرة التي أدت إلى تدهور أمن طرق الحج حتى لا يخرج البحث عن طاقه التاريخي، وازدادت غارات القبائل على الحجاج والقوافل، بل إن مكة والمدينة شرفهما الله لم تسلما من القلاقل ولم تنعما بالأمن، كما كان لظهور القرامطة في شرقي الجزيرة العربية وما أحدثوه من فوضى وما عاملوا به الحجاج والمسافرين من قسوة وتحطيم وإتلاف للمرافق على طول طرق الحج وخاصة طريقي الحج الرئيسيين البصرة – مكة، والكوفة – مكة، وما أحدثوه من فظائع داخل مكة شرفها الله مما اضطر خلفاء بني العباس بعد ذلك إلى وضع حراسة مكثفة للعديد من محطات الطرق، بل أصبح لكل قافلة قائدًا وحراسة عسكرية مرافقة لها[2].ولكن اتسع الشق على الراقع ولم تعد طرق الحج آمنة إلا في فترات يسيرة حتى سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م.

سادسًا: جواز تأجير بيوت مكة المكرمة أو بيعها أو وقفها:

اختلف العلماء في حكم بيع دور مكة وإجارتها، فقد روي عن مالك في أحد أقواله أنه كره بيعها أو كراءها فإن بيعت أو أكريت

---

(١) الحربي، كتاب المناسك، ص ص٣١٩، ٣٤٤ وانظر:-

سليمان كمال، إمارة الحج، ص ص٢٤٢- ٢٤٥

(٢) سعد الراشد، درب زبيدة، ص٥٤

لم يفسخ[١].

أما جواز بيعها وكراها فقد بُنيَ على أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمنّ بها على أهلها، فلم تقسم قسمة الغنائم أو الفيء وذلك تعظيمًا لحرمة مكة شرفها الله[٢].

وأما ما ذكر من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص المتضمّن "من أكل كراء بيوت مكة فإنما يأكل نارًا"[٣] فإنه حديث موقوف وليس مرفوعًا للنبي صلى الله عليه وسلم ولا يحتج به على تحريم كراء بيوت مكة كما صرح بذلك تقي الدين الفاسي[٤] (ت٨٣٢هـ) وهو من كبار فقهاء المالكية وقضاتهم في عهده.

ويشير الأزرقي (ت٢٥٠هـ) إلى أن طاووسًا وعمرو بن دينار كانا لا يريان بأسًا بكراء بيوت مكة، بل إن عمرًا بن دينار حين ذكر له قول ابن المخارق في شأن مكة وأنه لا تباع تربتها ولا يكرى ظلّها قال "جاءوا به على الرويّ يا خراساني"[٥].

وفي رواية أنه قال: "جاءك به على الرّوي"[٦]، وذلك دليل على

(١) الفاسي، شفاء الغرام، جـ١، ص٢٦

(٢) نفس المصدر، نفس الجزء والصفحة.

(٣) الأزرقي، أخبار مكة، جـ٢ ،ص١٦٣

(٤) الفاسي، المصدر السابق، جـ١ ، ص٢٦

(٥) الأزرقي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص١٦٦

(٦) الفاكهي، أبوعبدالله محمد بن إسحق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، جـ٣، ص٢٤٩

إنكاره لقول ابن أبي المخارق.

ومما يدل على جواز بيع دور مكة أيضًا، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى الدور المحيطة بالمسجد الحرام وأدخلها فيه توسعة له، كما اشترى رضي الله عنه دارًا للسجن بأربعة آلاف درهم[١]، وكذلك فعل عثمان بن عفان وعبدالله بن الزبير ومعاوية بن أبي سفيان حين اشترى دار الندوة ودار أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها وغيرها من الدور[٢].

ومعلوم بالضرورة أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره ممن ذكرنا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من غيرهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يصلح في أرض مكة، كما أنه وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم كانوا في العلم والورع والتقى بالمحل الأعلا[٣].

ويرجع الاختلاف بين العلماء في جواز بيع دور مكة وكراها إلى فتح مكة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهل فتحت عنوة[٤] أم فتحت صلحًا[٥]، والواقع أن مكة فتحت عنوة، والخلاف هو

(١) الفاسي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ص٢٦- ٢٧

(٢) نفس المصدر، نفس الجزء، ص٢٦

(٣) المصدر نفسه، جـ١، ص٢٦

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧

(٥) محب الدين الطبري، أبوالعباس أحمد بن عبدالله، القري لقاصد أم القرى، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص٢٥٩

هل منّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهلها؟ وهو الأصح، أم أنها فتحت صلحًا لأن فتحها صلحًا يخالف ظاهر الأحاديث الواردة في صفة فتح مكة، ويخالف أيضًا قول جمهور العلماء رحمهم الله في أنها فتحت عنوة[١]، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم حين سئل في حجة الوداع عن المكان الذي سوف يقيم به، وهل سيعود إلى داره التي تركها وهاجر إلى المدينة قال: "وهل ترك لنا عقيل منزلاً" ونزل عليه الصلاة والسلام بخيف بني كنانة"[٢].

واللافت للنظر أن مؤرخي مكة منذ الأزرقي والفاكهي ومن جاء بعدهما كالفاسي وغيره لم يشيروا إلى جواز وقف بيوت مكة، وربما يرجع ذلك إلى أن الوقف وما ينتج عنه من مصالح لعموم المسلمين، وما يترتب عليه من نتائج خيرية سواء كان وقفًا خيريًّا أو أهليًا أولى في الجواز من البيع والكراء لما فيه من الأعمال الصالحة التي يرجى ثوابها عند الله سبحانه وتعالى في الدار الآخرة، ومازالت مكة تحتوي على كثير من الأوقاف رغم ضياع كثير منها على مر العصور، ولاشك أن صاحب هذا الوقف الذي نحن بصدد دراسة وثيقته ـا قد رغب في الأجر والثواب شأنه شأن غيره من أصحاب الأوقاف الخيريّة ولذلك أوقف دارًا وحوانيتًا وسقاية بالشروط المذكورة في الوثيقة على وجوه الخير.

سابعًا: تحليل حروف النص ووضع تاريخ له مستندًا في ذلك إلى

---

(١) الفاسي، المصدر السابق، نفس الجزء، ص ص٢٦- ٣٧

(٢) الفاكهي، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، جـ٣، ص٢٥٣

خصائص الكتابة العربية في هذا القرن:

١- نقش نص هذه الوثيقة بالخط الحجازي المزوى المورق بطريقة الحفر الغائر، ولكنه ليس بالعميق بدليل أن بعض كلمات النص وحروفه تبدو باهتة وضعيفة ابتداء من السطر الرابع وربما يعود ذلك لصلابة الحجر نفسه.

٢- يلاحظ ظهور التوريق في بدايات حروف النص على هيئة ورقة نباتية ثنائية الفصوص وبصفة خاصة الألفات واللامات وفي كلمة واحدة فقط ظهر التوريق ثلاثي الفصوص في كلمة "بن" في عبارة "بن أحمد" في السطر الثالث والواقع أن التوريق سواء كان ثنائي الفصوص أو ثلاثي الفصوص ظهر أول ما ظهر في القرن الثالث بينما تخلو نصوص القرنين الأول والثاني من أي زخرفة إلا في نصوص قليلة جداً إن لم تكن نادرة، وذلك لأن القرن الثالث الهجري غني بالكتابات سواء كان تذكارية[1]، أو تأسيسية فعددها يفوق الحصر بحيث تساعد الباحث في تتبع وتطور ظواهرها الخطية، وبالتالي تسهل على الباحث معرفة القرن الذي كتبت فيه وبالإضافة إلى التوريق ظهر "التفطيح" في نهايات كثيرة من الحروف شبيهة بالمثلثات المطموسة أو الشقوق السهمية والتي ظهرت بشكل واضح في نقوش حجازية تفوق الحصر في هذا القرن، وهذه الشقوق السهمية تعتبر من مميزات مدرسة الحجاز، لأن المدارس الخطية الإسلامية الأخرى

---

(١) إبراهيم جمعه، دراسة تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٩م، ص١٥٥

اشتهرت بضخامة ألفاتها ولاماتها وانتهائها بمثلثات مطموسة[1] أو مثلثات مسننة.

٣- على الرغم من أن ناقش النص قد وفق إلى حد كبير في استقامة الأسطر والتناسب في حجم الكلمات في السطر الواحد، إلا أن بعض الأسطر أقصر من بعض، وأقل عدداً في كلماتها وبخاصة في الأسطر الخمسة الأولى، بينما يزيد حجم الأسطر ابتداء من السطر السادس وبالتالي عدد الكلمات، وربما يرجع ذلك إلى عدم التمكن من تهيئة الحجر وتسوية سطحه وإعداده للحفر، فاللوح الحجري يقل عرضه في أعلاه عن عرضه في أسفله، وهناك احتمال تعرض اللوح الحجري للكسر أثناء إعداده للكتابة أو أثناء نقله من مكانه الأصلي، مما أفقدنا بعض كلماته وربما تاريخه أيضاً، ولكن رغم فقدان تاريخ النص إلا أننا لم نفقد معرفة موضوع الوقف فهي واردة بالنص، كما أن مصارف الوقف محدده، فضلاً عن أن الموقوف عليهم قد حددته الوثيقة.

٤- طريقة تنفيذ النص تدل على الأرجح أن الخطاط أو النقاش الذي نقشه هو خطاط ونقاش محلي مكّي، فأسلوبه أسلوب الخط الحجازي الذي رأيناه على مئات النصوص سواء داخل مكة أو المناطق التابعة لها أو غيرها من أقاليم الحجاز، كما أن خط نص هذه الوثيقة يعتبر متوسط الجودة بالنسبة لنقوش هذا القرن فقد ظهرت نصوص كثيرة أقل منه جودة، كما ظهرت نصوص أكثر جودة

---

(١) المرجع نفسه، ص١٥٨

واتقانًا مثل نقوش مبارك المكي المؤرخة بسنة ٢٤٣هـ والتي تعتبر من أفضل النماذج الكتابية في هذا القرن ليس في الحجاز بل ربما في العالم الإسلامي بأسره.

٥- هناك ملاحظة تتعلق بحرف الياء النهائية التي ظهرت في نهاية السطر السابع على هذا النحو " " وهي ياء حجازية لم نر لها نظيرًا في غير النقوش الحجازية (المكّية والمدنيّة) ظهرت في نقوش مكة منذ القرن الثاني الهجري في نصي مسجد البيعة بمكة المكرمة المؤرخ أحدهما بسنة ١٤٤هـ[1]، وهذا دليل آخر على أن ناقش النص ينتمي إلى المدرسة الحجازية وفي مكة المكرمة على وجه الخصوص، ولم يعرف أن هناك خطاطًا أو نقاشًا نقش نصوصه وكتاباته من خارج مكة أو المدينة في مكة والمدينة إلا في حالتين استثنائتين إحداهما في سنة ١٦٧هـ حين بعض الخليفة المهدي بخطاطين ونقاشين من الكوفة لتوثيق عمارته للمسجد الحرام وتسجيل تاريخها[2]، والأخرى حين بعث السلطان عبدالمجيد العثماني بالخطاط التركي عبدالله زهدي للكتابة على جدران وقباب المسجد النبوي وتوثيق هذه العمارة في القرن الثالث عشر الهجري، ولذلك نجد أن هذا الخطاط يفخر بعد ذلك بما قام به من عمل وبما أتيحت له من فرصة بحيث أصبح يوقع على أعماله الخطية بـ "خطاط الحرمين الشريفين"[3]

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ١٨٩- ١٩٦، لوحة ٢٧، ٢٨

(٢) المرجع نفسه، ص ص٢٠٢- ٢١٢، لوحة ٣٠، ٣١، ٣٢

(٣) محمد الفعر، الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني، ص٥١٠

وماعدا هاتين الحالتين الاستثناء فإن جميع النقوش والكتابات المكية والمدنيّة قد نفذت بأيدي خطاطين محليين.

ويلاحظ أيضًا أن هذه الياء النهائية التي أشرنا إليها في هذا النص قد ظهرت أكثر ليونة في أكثر من موضع كما هو الحال في كلمة "على" في عبارة "تستغل على" في السطر السادس، وكلمة "في" في السطر السابع وفي حرف الياء في عبارة "في هذه" في بداية السطر الثامن، وفي كلمة "شيء" في السطر العاشر في عبارة "من شيء".

٦- وردت كلمة "ذلك" بزيادة ألف هكذا "ذالك" في عبارة "بحقوق ذلك" في السطر الرابع مع أن الصحيح عدم ظهور الألف وإنما تقديرها لفظًا لا كتابة، بينما كتبت صحيحة في آخر كلمة بالنص.

٧- يلاحظ أن الخطاط أو النقاش لم ينقش إسمه أو توقيعه أو تاريخ النص مع أن النقوش الحجازية تعتبر من أقدم النقوش التي ذكر إسم ناقشها أو توقيعه، وكذلك التاريخ، ولا نستطيع أن نجعل ذلك قاعدة عامة بل ظهرت كثير من النقوش الحجازية خالية من اسم ناقشها أو توقيعه أو تاريخ النص أو نقشه.

ثامنًا: دراسة مقارنة لحروف النص موضوع الدراسة مع نص آخر من بعض أقطار العالم الإسلامي:

إن الدراسة المقارنة الصحيحة لا يمكن أن تقوم على مقارنة نصوص تنتمي جميعها إلى مدرسة واحدة مثل مدرسة الحجاز، ولكن تقوم على مقارنة نصوص تنتمي إلى مدارس خطية إسلامية أخرى، وقد اخترت هنا أن أقارن النص موضوع الدراسة مع نص آخر ينتمي إلى

المدرسة المصرية للاعتبارات التالية:-

١- أن المدرسة المصرية تعتبر من المدارس الإسلامية الكبرى في مجال الخط والكتابة والنقوش، وتمكن الخط فيها تمكنًا كبيرًا منذ كانت إقليمًا تابعًا للخلافة الإسلامية في عصر الراشدين ثم في العصرين الأموي والعباسي حتى أصبحت مركزًا للخلافة والسلطنة سواء في العصر الفاطمي أم في العصرين الأيوبي والمملوكي بل وحتى في العصر العثماني حيث كانت مصر من أهم الأقاليم الإسلامية العثمانية.

٢- إن النص الذي تم إختياره للمقارنة يعود إلى منتصف القرن الثالث الهجري تمامًا فهو مؤرخ بشهر شوال سنة ٢٥٠هـ.

٣- يتميز النص المختار للمقارنة بوضوحه، فضلاً عن أنه كامل الحروف والكلمات، ولم يتعرض أي جزء منه للكسر أو التلف.

أما أوصافه فهي على النحو التالي:

يتألف هذا النص من اثنى عشر سطرًا منقوشة بالخط الكوفي الغائر المورق، على مادة رخامية وقياساته ٤٤ × ٥٦سم، محفوظ بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة تحت رقم ٨٨٣٥، وقد نشره جاستون فييت[1] في المجلد الثاني من شواهد القبور، كما قام بدراسته د.

(١) Wiet (G.): Steles Funereires, Tome II (Le Caire ١٩٣٢) P. ١٧٦

إبراهيم جمعه[١]، ونصه على النحو التالي:-

١- بسم الله الرحمن الرحيم.

٢- هذا ما تشهد به حميدة.

٣- ابنت رباح تشهد الا.

٤- لا الله وحده لا شريك.

٥- له وأن محمدًا عبده ورسو

٦- له أرسله بالهدى ودين

٧- لحق ليظهره على الدين كله

٨- ولو كره المشركون وأن الجنة

٩- حق والنار حق وأن الساعة آتية

١٠- لا ريب فيها وأن الله يبعث من في

١١- القبور توفيت في شوال سنة

١٢- خمسين ومائتين.

١- وبمقارنته بالنص موضوع الدراسة نجد أن كلا النصين قد نقشا بالحفر الغائر وإن كان النص المصري تظهر حروفه غليظة مقارنة بالنص الحجازي الذي تظهر حروفه دقيقة نسبيًا.

٢- يلاحظ أن ناقش النص المصري على دراية بقواعد اللغة

(١) إبراهيم جمعة، المرجع السابق، ص١٨٣

العربية، فليس هناك أخطاء لغوية أو كتابية بالنص بينما ظهرت في النص الحجازي بعض الأخطاء مثل كتابته لكلمة "ذلك" في السطر الرابع حيث أضاف لها حرف ألف فكتبها على هذا النحو "ذالك" مع أن الألف هنا تقدر لفظًا لا كتابة.

٣- على الرغم من أن ناقش النص موضوع الدراسة قد وفق إلى حد كبير في استقامة الأسطر والتناسب في حجم الكلمات في السطر الواحد، إلا بعض الأسطر أقصر من بعض وأقل عددًا في كلماتها وبخاصة في الأسطر الخمسة الأولى من النص، وهو ما أشرنا إليه عند تحليل النص، بينما وفق ناقش النص المصري إلى حد كبير في توزيع الحروف والكلمات وأسطره متناسقة ومتناسبة في حجم الكلمات في سائر النص عدا السطر الأخير الذي شغله بكلمتين هما تاريخ السنة وهي نهاية النص، وربما يكون السبب هو أن ناقش النص موضوع الدراسة لم يكن متمكنًا من الكتابة والنقش بعكس غيره من خطاطي ونقاشي الحجاز الذين عرفهم القرن الثالث الهجري، الذين بلغوا شهرة كبيرة في جمال ودقة وزخرفة النقوش وأصبحت شهرتهم لا تقتصر على مكة أو الحجاز بل في بقية أقطار العالم الإسلامي، لدرجة أنه أستعين بهم لتنفيذ أعمال كتابية ونقشية في خارج الحجاز، وبخاصة في مصر التي استعانت بخطاط الحجاز الشهير مبارك المكي الذي نفذ عددًا من الأعمال الكتابية وصلنا منها حتى الآن أربعة نقوش، ثلاثة منها مؤرخة بسنة ٢٤٣هـ والرابع

مؤرخ بسنة ٢٤٦هـ[(١)].

٤- وضع النص المصري داخل إطار زخرفي مجدول من ثلاث جهات مما ساعد ناقشه على التحكم في بدايات السطور ونهاياتها، بينما يخلو النص موضوع الدراسة من أي إطار.

٥- ظهر التاريخ في النص المصري بالشهر والسنة في السطرين الحادي عشر والثاني عشر بينما خلا النص موضوع الدراسة من أي تاريخ أو أن الجزء الخاص بالتاريخ من النص قد فقد نتيجة تعرضه للكسر.

٦- ظهر التوريق أو اللواحق الزخرفية في النص موضوع الدراسة على هيئة وريقات نباتية ثنائية الفصوص في الحروف القائمة كالألفات واللامات وفي كلمة واحدة ظهر التوريق بثلاث فصوص هي كلمة "بن" في السطر الثالث من النص بينما ظهر التوريق في بدايات حروف النص المصري على هيئة وريقات نباتية مسننة بينما ظهر التفطيح في نهايات الحروف وهو تعريض نهاية الحرف بحيث تشبه المثلثات المطموسة.

٧- ظهرت الياء النهائية في النص المصري في شكلها العادي هكذا " " وهكذا " " في كلمة "على الدين" في السطر السابع وفي كلمة "في" في نهاية السطر العاشر بينما ظهرت في النقش موضوع

---

(١) عن هذا الخطاط انظر، محمد فهد الفعر، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز، ص ص٢١٩- ٢٣٢ لوحة ٣٧- ٤٠

الدراسة على هذا النحو" "وهي ياء حجازية لم نر لها نظيرًا في غير النقوش المكية منذ القرن الثاني الهجري[1].

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- الأزرقي، أبوالوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، جزءان، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، دار الثقافة، ١٣٨٥/١٩٦٥م.

٢- الأزهري، محمد بن أحمد الهروي، تهذيب اللغة، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٣- ابن الأثير، أبوالحسن علي بن محمد، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، جـ٧، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م. أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، د.ت.

٤- ابن بكار، الزبير بن بكار بن عبدالله، جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

(١) انظر هامش (١٢٢) من هذه الدراسة.

٥- ابن تعزي بردي، جمال الدين أبوالمحاسن، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، جـ٢، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م.

٦- ابن خياط، خليفة بن خياط، تارخ خليفة، تحقيق أكرم العمري، الرياض، نشر دار طيبة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٧- ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، جـ١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٨- ابن شبة، أبوزيد عمر بن شبة النميري، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم شلتوت، جده، دار الأصفهاني، جـ١ – جـ٤، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٩- ابن طباطبا، محمد بن علي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، منشورات دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٠- ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن جار الله، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

١١- ابن فهد، عمر بن محمد بن محمد بن محمد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت، نشر مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، جـ٢، ١٤٠٣هـ.

١٢- ابن الفقيه، أبوبكر أحمد بن محمد، كتاب البلدان، تحقيق دي جويه، ليدن، ١٨٨٥م.

١٣- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، بيروت، دار صادر، جـ٢، دون تاريخ.

١٤- ابن النجار، محمد بن محمود، الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، مكة المكرمة، نشر مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

١٥- أبواسحق الحربي، ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة للترجمة والنشر، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

١٦- البصري، هلال بن يحيى، أحكام الوقف، حيد آباد الدكن، ١٩٣٦م.

١٧- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الطباع، بيروت، ١٩٥٨م.

١٨- البيهقي، إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوىء، بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

١٩- الثعالبي، أبومنصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل، ثمار القلوب في المضاف والمنصوب، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، مصر، دار النهضة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٢٠- الجهشياري، أبوعبدالله محمد بن عبدوس، الوزراء والكتاب، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٢١- الخطيب البغدادي، أبوبكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، جـ١٤، ١٣٠١هـ.

٢٢- الذهبي، أبوعبدالله شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، بيروت، الطبعة الثالثة، جـ١٠، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥/١٩٨٥م.

٢٣- الرشيدي، الشيخ أحمد، حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبداللطيف، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٨٠م.

٢٤- السمهودي، علي بن أحمد، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، الطبعة الرابعة، جزءان، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٢٥- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٢٦- الصابي، أبوالحسين هلال بن الحسن، رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، بغداد، نشر المجمع العلمي العراقي، مطبعة العاني ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

٢٧- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، القاهرة، ١٠ أجزاء، دار المعارف، ١٩٧٩م.

٢٨- العسكري، أبوهلال عبدالله بن سهل، الأوائل، تحقيق وليد قصاب ومحمد المصري، الرياض، منشورات، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٩- العصامي، عبدالملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، جـ٢، المطبعة السلفية، ١٣٨٠هـ.

٣٠- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء، القاهرة، جزءان، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٦م.

٣١- الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد، الجزء الرابع، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

٣٢- الفاكهي، أبوعبدالله محمد بن اسحق، أخبار مكة في قديم الدهر

وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، الجزءالثالث، مكتبة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٣- الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب، المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، منشورات داراليمامة للبحث والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

٣٤- محب الدين الطبري، أبوالعباس أحمد بن عبدالله، القرى لقاصد أم القرى، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٥- المسعودي، أبوالحسن علي بن حسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت، جـ٢، دار المعرفة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٣٦- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥م.

٣٧- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، طبعة بولاق، ١٢٧٠هـ.

٣٨- النهروالي، قطب الدين الحنفي، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، طبعة أوروبا، ليبزج، ١٨٥٧م. وكذلك، تحقيق محمد طاهر كردي، مكة المكرمة، نشر مكتبة فدا، الطبعة الثانية، ١٣٧٠هـ.

٣٩- ياقوت، ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٠- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، بيروت، نشر دار بيروت للطباعة، جـ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٤١- اليعقوبي، مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملوارد، بيروت، دار الكتاب الجديد، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ثانيًا: المراجع:-

١- الأنصاري، عبدالقدوس، آثار المدينة المنورة، نشر المكتبة السلفية، الطبعة الثالثة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٢- إبراهيم جمعة، دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٦٩م.

٣- إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، القاهرة، جزءان، ١٩٢٥م.

٤- أبوزهرة، محمد، محاضرات في الوقف، القاهرة، مطبعة مخيمر، ١٩٥٩م.

٥- أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر "دراسات تاريخية وثائقية"، القاهرة، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

٦- باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٧- الراشد، سعد بن عبدالعزيز، درب زبيدة، الرياض، دار الوطن، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٨- عنقاوي، عبدالله عقيل "المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه" مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الثاني، ١٣٩١- ١٣٩٢هـ/ ١٩٧١- ١٩٧٢م.

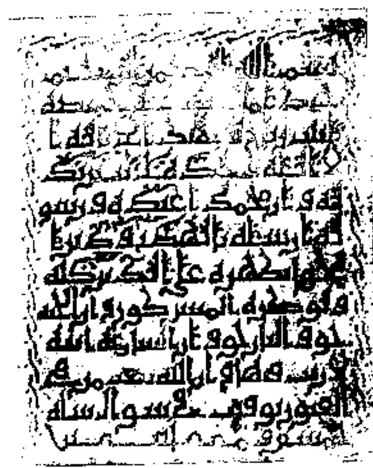
٩- الفعر، محمد بن فهد بن عبدالله، تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، جدة، تهامة للنشر، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١٠- الفعر، محمد بن فهد بن عبدالله، الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني، رسالة دكتوراه، لم تنشر، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١١- الفعر، محمد بن فهد بن عبدالله، "نص منقوش على أعمدة مصلى مقام إبراهيم عليه السلام مؤرخ بسنة ٧١٩هـ" مجلة جامعة أم القرى، العدد ١٣، السنة الرابعة ١٤١٦هـ.
١٢- كحالة، عمر رضا، إعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، دمشق، الطبعة الثانية، جـ٥، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.
١٣- كمال، سليمان بن صالح، إمارة الحج في العصر العباسي من سنة ١٣٢ إلى سنة ٢٤٧هـ، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، لم تنشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٤- ملاقلندر، عبدالقادر، الخلاصة المفيدة في أحوال عين زبيدة، مكة المكرمة، ١٩٢٧م.
١٥- Wiet (G.) Steles Funereires, Tom II (Le Caire), ١٩٣٢

شكل (١) صورة مفرغة لنقش وثيقة الوقف موضوع الدراسة.





لوحة (٢) النص المقارن المؤرخ لسنة ٠٥هـ
مصدرها متحف الفن الإسلامي بالقاهرة

النشاط الاقتصادي في مكة المكرمة
في عصر النبوة والخلافة الراشدة
– التجارة والنقد –

إعداد

د. إبراهيم محمد أبا محمد

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي الجديدة
المملكة المغربية

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

تمثل دراسة الاقتصاد المكي في عصر النبوة والخلافة الراشدة أهمية كبرى في مجالي التاريخ الاقتصادي والفكر الاقتصادي الإسلامي، لاسيما وأن هذه المرحلة كانت مرحلة تأسيس بالنسبة للاقتصاد الإسلامي.

وقد اختارت هذه الدراسة موضوع التجارة والنقد لأنهما القطاعين الاستراتيجيين في الاقتصاد المكي.

ففي القطاع الأول، التجارة، كان المجتمع المكي مجتمعا تجاريا أقام ما يسمى اقتصاد السوق والقوافل التجارية بمقوماته الاقتصادية وتناقضاته الاجتماعية . وكانت مرحلة فجر الإسلام مرحلة إصلاح لهذا النمط الاقتصادي بإقامته على الأحكام الشرعية والمعاملات السليمة . كما أظهر البحث التحولات التي عرفتها تجارة المكيين من التطور إلى التراجع خصوصا بعد تحول طرق التجارة الدولية بعد الفتوحات الإسلامية .

أما بالنسبة للقطاع الثاني، النقد، فقد أظهر البحث أهمية التداول النقدي في المجتمع المكي وكيف أصبحت نسبة تبادل الذهب بالفضة السائدة عند تجار مكة هي النسبة الشرعية التي أقرها الإسلام.

تمهيـــــد :

تمثل دراسة الاقتصاد المكي في عصر النبوة والخلافة الراشدة حلقة أساسية من حلقات تطور الاقتصاد الإسلامي . لأن مرحلة تأسيس الاقتصاد الإسلامي بدأت في مكة المكرمة، فقد نشأ الاقتصاد ،الإسلامي بنشوء الشريعة الإسلامية وهو جزء منها، وقد تطور معها حسب نزول الآيات وورود

الأحاديث، إلى أن أكمل الله تعالى نعمته علينا ورضي لنا الإسلام دينا . والاقتصاد الإسلامي لم ينشأ في فراغ، أو بين مجتمع منعزل عن العالم أو جامد الحركة، بل نبت من جذور واقع معيش وممارسات اقتصادية عرفتها المنطقة العربية التي شهدت ميلاد الاقتصاد الإسلامي وهي بالأساس أرض الحجاز وعاصمتها مكة المكرمة.

وقد أقر الإسلام الصالح من تلك الممارسات والتجارب، وعمل على تنظيم أجزاء الاقتصاد الإسلامي في وحدة متماسكة ذات مفاهيم وأهداف جيدة محددة، كما أبطل العمل بالفاسد منها . وبذلك كان الاقتصاد الإسلامي الذي نشأ في مكة المكرمة منزل الوحي هندسة جديدة وتصميما سليما للحياة الاقتصادية والمالية الصالحة لكل زمان ومكان.[(١)] ومن هنا تأتي الأهمية البارزة لدراسة النشاط الاقتصادي في مكة المكرمة في عصر النبوة والخلافة الراشدة بالتركيز على مجالين حيويين هما : التجارة والنقد . وهنا أرى ضرورة الإشارة إلى الملاحظتين التاليتين :

الملاحظة الأولى : إن اختيار موضوع التجارة والنقد ليس عملا اعتباطيا إنهما يمثلان أهم نشاط اقتصادي عرفته مكة ذات الاقتصاد البضائعي، والتجارة هي التي نقلت مجتمع مكة من مجتمع بدوي إلى مجتمع حضري غير زراعي فالدعوة الإسلامية ظهرت في (واد غير ذي زرع) وفي المجتمع القرشي المكي، المعروف بالنشاط التجاري، وليس للنشاط الزراعي فيه شأن، ويرجع ذلك للعامل الجغرافي . لهذا لم يظهر الاهتمام بمسألة الأرض في الاقتصاد المكي أوتأطير شرعي دقيق لها مع بداية الدعوة الإسلامية. ولا يعني اشتغال

---

(١) علال الخياري : الاقتصاد الإسلامي. شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص: ٨٦.

المكيين بالتجارة والنقد أنهم لم يكونوا على اطلاع بأنشطة اقتصادية أخرى كتربية الماشية والرعي والعمل الحرفي[١] ولكن النشاط التجاري وأعمال الصيرفة هي الغالبة.

الملاحظة الثانية: لايمكن فهم النشاط الاقتصادي في المجتمع المكي في عصر النبوة والخلافة الراشدة دون الرجوع إلى عصر ما قبل الإسلام في مكة المكرمة، فهناك سيرورة ولايمكن فهم طبيعة الاقتصاد المكي في الإسلام دون معرفة هذا الاقتصاد في عصر ما قبل الإسلام، وما تم إقراره من طرف الإسلام و ما رفض واستبعد، لهذا فالعودة إلى عصر ما قبل الإسلام في مكة ليس عملا اعتباطيا بل ضرورة علمية تاريخية لفهم دقيق لسياق الأحداث والممارسات وكذا التحول النوعي الذي حدث في مكة في مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين.

نشأت الدعوة الإسلامية والمنطقة العربية في ظل أربعة أنماط اقتصادية وهي على الشكل التالي :[٢]

أ- اقتصاد عائلي مغلق لقبائل وتجمعات قبلية تعيش على النشاط الرعوي في بوادي الحجاز . أو على النشاط الزراعي وحياة الاستقرار في مرتفعات اليمن وحضرموت .

ب – اقتصاد السوق والقوافل التجارية في مدن الوسط : مكة والمدينة والطائف.

---

(١) الأزرقي : أخبار مكة. ج :١، ص: ١٢٢ و ١٢٣.

ويراجع أيضا كتاب : تاريخ العرب، لمصطفى أبوضيف ،دار المعارف، ط :٣، ١٩٨٦، ص : ٦٥.

(٢) الخياري : الاقتصاد الإسلامي . مرجع سابق، ص ٨٦.

ج- اقتصاد المحيطات والملاحة التجارية الدولية وتزويد الأسواق الداخلية في السواحل الغربية والشرقية والمرافئ الجنوبية من بحر العرب، كمدن السواحل الغربية.

د- اقتصاد مركزي مسيطر في مملكتي المناذرة والغساسنة اللذين يدوران في فلك الحضارتين الفارسية والبيزنطية .

وينتمي الاقتصاد المكي إلى النمط الثاني الذي يقوم على اقتصاد السوق والقوافل التجارية ، وكان القرشيون سادة هذه الظاهرة الاقتصادية الخاصة بالمنطقة العربية .

جاء في فجر الإسلام لأحمد أمين : " كان أشهر من يسكن مكة قبيلة قريش، وأبو النضر بن كنانة ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي، وقد رأى بعضهم أنها سميت قريشا لاشتغالها بالتجارة ، ففي لسان العرب، " وقيل سميت بذلك لأنهم كانوا أهل تجارة ولم يكونوا أصحاب ضرع وزرع من قولهم فلان يتقرش المال أي يجمعه." .[١]

لقد كان لبناء الكعبة بمكة الأثر في تشكيل الحياة الاقتصادية وسيرها في المنطقة العربية ، فالأشهر الحرم ومواسم الحج كانت أيام سلام، كما ضمنت للقبائل المتصارعة أن تلتقي على صعيد واحد بهدف التبادل التجاري داخل سوق قارة تتحول إلى موسم عامر هي مكة ، وتبعا لهذا ظهرت فعالية الدور الذي سيضطلع به القرشيون، كخدمة الحجاج، وتوفير السلع واستقبال القوافل التي تعبر الصحراء في اتجاه مكة مهوى الأفئدة ومحط أنظار عرب الشمال والجنوب.[٢]

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام . مطبعة الاعتماد، ط:٢،ص ١٥.

(٢) يراجع : الاقتصاد الإسلامي ، لعلال الخياري ، ص ٨٤.

وقد ظهر دور مكة التجاري في القرن السادس الميلادي فقد كانت حملة أبرهة الحبشي إلى الحجاز (عام الفيل) آخر محاولة للسيطرة على طريق التجارة غرب الجزيرة . كما باءت محاولات البيزنطيين والساسانيين بالفشل في طرق التجارة على أطراف الجزيرة في الشمال الشرقي والجنوب والغرب واستفادت مكة من الوضع لتشق لنفسها طريقا مستقلا باتخاذ سياسة الحياد تجاه القوتين المتصارعتين .[١] وقد مكن النشاط التجاري مكة من التحول من اقتصاد بدوي إلى اقتصاد تجاري، فمكة كانت في بداية ظهور الإسلام سوقا ومركزا دينيا وتجاريا . وصارت بيد المكيين تجارة القوافل الغنية في الجزيرة.[٢] وهي تجارة بعيدة المدى تربط بين التجارة البحرية في الموانئ الجنوبية للجزيرة وبين التجارة مع المناطق الساسانية والبيزنطية في الشمال وهاتان المنطقتان التجاريتان الدوليتان تعتبران خطيرتان: منطقة البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة المحيط الهندي.[٣]

وذكر أحمد أمين في فجر الإسلام :" كانت التجارة قديما في يد اليمنيين، وكانوا هم العنصر الظاهر فيها . فعلى يدهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار وواردات الهند إلى الشام ومصر . ثم انحط اليمنيون ...

وحل محلهم في القبض على ناصية التجارة عرب الحجاز، وكان ذلك منذ القرن السادس الميلادي، فكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من

---

(١) عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. دار الطليعة، ط :٢ ، بيروت، ١٩٧٨، ص : ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص: ١١.

(٣) الحبيب الجنحاني : التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام . دار الغرب الإسلامي ط : ١ ، بيروت، لبنان، ١٩٨٥،ص :١١.

اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق الشام ومصر، وقليلا ما يبيعونها في أسواق فارس، لأن التجارة مع الفرس كانت في يد عرب الحيرة، وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم، ووصل المكيون قبيل الإسلام إلى درجة عظيمة في التجارة، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في الكثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به كالحرير وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج (أوليري : العرب قبل الإسلام) أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب، كذلك كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية." (١)

وقد ظهرت بوادر الثراء على المجتمع المكي كنتيجة لتدفق رؤوس الأموال واستثمارها في مكة أو في شبكة الأسواق حول مكة سوق عكاظ، وذي المجاز، والمجنة، وبلغت مهارة القرشيين في التجارة إلى حد عقد معاهدات تجارية مع الروم والفرس والأحباش. وبسبب هذا النشاط التجاري وكنتيجة له نشأت طبقة مترفة تجارية نشيطة مكونة من التجار والصيارفة، لأن التجارة كانت ترتكز عندهم على تبادل العروض والنقود، وساعد هذه الطبقة من التجار (الملأ المكي) إلمامهم بنظام السوق وبدقائق علم الحساب التجاري على تنمية ثرواتهم وتكريس سلطة المالك موظفين تجارة القوافل لجلب السلع كالمواد الغذائية ونضائد الديباج، وستور الحرير والألبسة والعطور، بالإضافة إلى والخيول والسيوف والرقيق...كما نظر أبناء الأمم المجاورة إلى هذه التجارة المربحة، فوفدوا إلى أسواق مكة التي يحكمها

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام. ص:١٤ و١٥.

قانون العرض والطلب، والمنافسة التجارية، وحرية التبادل. وهذا ما يثبت أن دكاكين تجارية كانت بأسواق مكة كان أصحابها من جنسيات مختلفة.(١)

وقد تحدث القرآن الكريم عن تجارة قريش(لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف). (٢) فقد كانت لهم رحلة صيفية إلى سوريا وأخرى شتوية إلى اليمن فكانوا يحصلون من معاملتهم مع سوريا على ربح طائل يصل إلى مائة في المائة بل إنهم كانوا يحصلون من قافلة تجارية واحدة إلى الشام على خمسين ألف دينار من الذهب. (٣) وكان تجار مكة "يخرجون بتجارتهم بقوافل عظيمة، وقد رآها "سترابو" وشبه القافلة منها بالجيش، وذكر الطبري أن قافلة من هذه ا لقوافل بلغت خمسمائة ألف بعير". (٤) فقد خافت قريش بعد غزوة بدر طريقها التي كانت تسلكها إلى الشام فسلكوا طريق العراق " فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة وهي عظم تجارتهم... وانتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم خبر العير، وفيها مال كثير، وآنية من فضة حملها صفوان بن أمية فخرج زيد بن حارثة فاعترضها فظفر بالعير، وأفلت أعيان القوم، فكان الخمس عشرين ألفا فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم الأربعة الأخماس على السرية"(٥)

(١) ياقوت الحموي:معجم البلدان. بيروت، ١٩٦٨، ج:٥، ص ٢٧٦.

(٢) سورة قريش. الآية ١- ٢.

(٣) عبدالرحمان فهمي: النقود العربية. دار القلم، القاهرة، ١٩٦٤، ص : ٢٢.

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام . ص :١٦.

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠، ج :٢ ، ص : ٤٩٢.

وتتحدث المصادر التاريخية عن فئة التجار في المجتمع المكي القرشي وتذكر أسماء عظيمة الثراء، فمنهم من أسلم ومنهم من مات على شركه مثل أبي العاص بن الربيع، " وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة."[١] ومنهم من أسلم مثل العباس بن عبد المطلب، " وكان ذا مال كثير متفرق في قومه."[٢] وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه تاجرا في عصر الجاهلية، وكان يدفع ماله قراضا، أو مضاربة على النصف، وقد جهز في إحدى المرات قافلة تتألف من ألف بعير، وسبعين فرسا."[٣] كما " كان أبو بكر تاجرا معروفا، وبلغت غلة طلحة بن عبيد الله من حرفة البزازة ألفا وافية كل يوم."[٤]

وتجدر الإشارة إلى أن الاقتصاد التجاري المكي كان يعرف في مرحلة ما قبل الإسلام وفي مرحلة ظهور الإسلام إلى حين فتح مكة أنشطة ائتمانية مرتبطة بمعاملات الإقراض والائتمان والمضاربة والقراض وأنواع من البيوع وأساليب احتكارية، وقد ساهمت هذه الأساليب التجارية في تقوية مكانة الطبقة التجارية المكية واستفحال الفوارق الطبقية بينها وبين فقراء مكة ومستضعفيها أو بتعبير آخر بين قريش الظواهر وقريش البطاح.[٥]

وقد وجد الإسلام في دعوته إلى اقتصاد عادل سلطة رأسمال فيه في مكة القائمة على الاحتكار والغش والبيوع الفاسدة والاستغلال والجشع

---

(١) المصدر نفسه، ج : ٢ ، ص : ٤٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ج : ٢ ، ص : ٤٦١ .

(٣) الكتاني : التراتيب الإدارية. بيروت، دار الثقافة ، ١٣٤٧ هـ، ج : ٢ ، ص : ٣٢.

(٤) المرجع نفسه و الصفحة.

(٥) الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . ص : ١١.

المادي . وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد أتت بفكرة الأمة بدل القبيلة، لكنها في الوقت نفسه رفضت الفردية المطلقة التي تبغي الاحتكار والاستغلال وتكديس الثروة . وإذا كانت مفاهيم اقتصاد السوق والقوافل التجارية التي قام عليها الاقتصاد المكي تحدث غنى وثروة فإن فئة قليلة هي التي استفادت من هذه الخيرات، وإذا كان الإسلام يرفض الأساليب والممارسات غير المشروعة فإنه يرفض نتائجها . ومن مميزات الإصلاح الشامل الذي جاء به الإسلام أن التغيير لم يحدث دفعة واحدة، ولم تكن قضايا الاقتصاد منفصلة عن العقيدة ومكارم الأخلاق والعدالة الاجتماعية وروح التكافل والتعاون . فقد كان أول ما نزل من القرآن في شؤون الاقتصاد التنديد بطغيان رأس المال في سورة العلق، ومبادئ وأسس الغنائم في سورة الأنفال مع فرض الزكاة في السنة الثانية للهجرة، وآخر ما نزل في الاقتصاد آية الربا.[(١)] ومن الناحية العملية كان أول تهديد وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى تجار قريش قطع الطريق المؤدية من مكة إلى الشام ليشعرهم بالخطر على تجارهم فيجنحوا إلى السلم.

وتظهر مميزات الاقتصاد الإسلامي في بداية تطبيقه العملي في ظاهرتين مهمتين :

الأولى : إصلاحات المعاملات الاقتصادية وإبطال الفاسد من المعاملات الربوية والبيوع المحرمة والغش والاحتكار... وإقرار الصالح من طرف الكسب والإنفاق، والمنافسة والشركات التجارية والزراعية باعتبارها وسائل تمويل مع جعل هذه المعاملات المالية وحدة متماسكة المبادئ والأهداف.

(١) الخياري : الاقتصاد الاسلامي ، ص ٨٨.

الثانية : منح مفاهيم جديدة لمصطلحات الخراج والجزية والركاز ... [(١)]

وقد نتج عن التشريع الاقتصادي الإسلامي تغيير جوهري في المجمع المكي الذي عرف ضغطا وتقلصا في نشاطه التجاري منذ غزوة بدر وبعد فتح مكة اندمج في الاقتصاد الإسلامي مما سينتج عنه تعديل في نوعية المعاملات التجارية وإقرار للعدالة الاجتماعية وروح التعاون والتكافل.

ولا يعني تطبيق الاقتصاد الإسلامي في مكة عدم استمرارية اقتصادها في مساره كاقتصاد تجاري بضائعي . فالتجارة " شطر عظيم من الهيكل الاقتصادي الذي قام عليه الإسلام." [(٢)] ولها تقاليد عريقة في الجزيرة العربية ولا سيما في المجتمع القرشي .وقد شارك الرسول صلى الله عليه وسلم قبل النبوة في النشاط التجاري للمجتمع المكي، فخرج إلى الشام في مال خديجة بنت خويلد. [(٣)] وكما أن النظرة إلى التجارة ملؤها الالتزام في الثقافة الإسلامية (تسعة أعشار في التجارة) [(٤)]

وأهم ما ميز النشاط التجاري في مكة في عصر النبوة والخلافة الراشدة ما يلي :

أولا : تطور سوقها مما أدى إلى إحداث خطة دينية اقتصادية، وهي خطة المحتسب وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعيد بن العاص

(١) المرجع نفسه، ص : ٨٨ و ٨٩ .

(٢) إبراهيم حركات : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط . دار إفريقيا الشرقالدارالبيضاء، ١٩٩٦ ، ص : ١١ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك . ج : ٢ ، ص : ٢٨٠ .

(٤) حركات : النشاط الاقتصادي الاسلامي، ص : ١١٧ .

بعد الفتح على سوق مكة .[١] كما كان الخلفاء الراشدون يشرفون بأنفسهم على شؤون الأسواق ومنه بطبيعة الحال سوق مكة.[٢]

ثانيا : مثل سوق مكة قطبا جاذبا كسوق دائمة وكسوق موسمية خصوصا بعد إسلام العرب والشعوب الأخرى وتوجههم لمكة إلى الحج والعبادة أو الاستقرار .[٣]

ثالثا : تطور مهنة الصراف بعد دخول المخزون الهائل من الفضة والذهب بعد الفتوحات في الدورة الاقتصادية، لا سيما وأن النسبة الشرعية للتداول النقدي كانت النسبة المعروفة لدى تجار مكة .

رابعا : يغيب عن الدارسين تحديد دقيق لمستوى الأسعار في مكة في هذه الفترة، فالمعلومات لاتسمح بالمقارنة بين أثمان مختلف البضائع،أو بمحاولة بسيطة للمقارنة بين الأسعار وأجور العاملين في المهن المختلفة .[٤] ويبقى مجرد استنتاج القول بأن ارتفاع المداخيل يؤدي إلى ارتفاع مستوى العيش عند فئة المستفيدين من الخيرات وبالتالي ارتفاع مستوى الأسعار.

أما المؤثرات السلبية على الاقتصاد المكي فستظهر كالتالي :

أولا : إن سيطرة الدولة، بعد الفتوحات، على المسالك التجارية طورت التجارة وفتحت طرق جديدة لم يكن للمسلمين تحكم فيها من قبل مما أثر على التجارة المكية خصوصا بعد السيطرة على الممرات البحرية وتحول

(١) الجنحاني : التحول الاقتصادي والاجتماعي، ص : ٣٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج : ٤ ، ص : ٢١٣ .

(٣) الجنحاني : التحول الاقتصادي و الاجتماعي ، ص : ٣٧ .

(٤) المرجع نفسه و الصفحة .

التجارة إليها بدل الاعتماد على الطرق البرية .

ثانيا : منافسة أسواق الأمصار الجديدة لتجار مكة في منطقة الحجاز بما فيها مكة .[(١)]

ثالثا : النزيف الذي عرفته مكة برحيل العديد من تجارها البارزين للاستقرار بالأمصار الجديدة والتجارة هناك أو الاستقرار أو الاضطلاع بمهام سياسية .

وفي نهاية هذا التحليل يمكن القول : إذا كان النشاط التجاري قد مثل أهم نشاط اقتصادي في مكة . وقد بدأ هذه الأهمية الاستراتيجية منذ ما قبل الإسلام واستمرت في العصر الإسلامي الأول إلا أنه ابتداء من القرن الثامن الميلادي سيتدهور المركز التجاري بمكة نتيجة تدهور مركزها السياسي عندما سينتقل مركز الدولة الإسلامية إلى الشام والعراق . ولعدم استمرارية مكة المكرمة ومنطقة الحجاز عموما في القيام بدور المركز الرئيسي لتجارة القوافل نتيجة للفتوحات الإسلامية التي نتج عنها تحول في طرق التجارة الدولية ، فعندما تمت للمسلمين السيطرة على الطريق البحرية المارة بالبحر الأحمر والطريق المارة بالخليج العربي أهملوا الطريق البرية المارة بوسط الجزيرة العربية ، بل عانت شبه الجزيرة العربية عموما من الشلل الاقتصادي تدريجيا حتى أضحت في عزلة في العهد العباسي. لكن هذا التراجع لم يفقد مكة كليا دورها فقد استمر نشاط جانبي في الطرق الكبرى في الجزيرة العربية استفاد منه الاقتصاد المكي.[(٢)] وما سيحفظ

(١) المرجع نفسه ، ص : ٥٠ .

(٢) موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول. ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، ط : ٢ ، المغرب ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ٢٩.

لمكة دورها التجاري والاقتصادي أنها محور الحياة الدينية الإسلامية فحركة الحج الواسعة النطاق ينتج عنها انفتاح شبكة من الطرق والتيارات التجارية ونقصد بها التيارات المتصلة بالحج لتزويد الحجاج باحتياجاتهم، كما يستغل الحجاج الموسم للقيام ببعض الأنشطة التجارية .[١]

إن موسم الحج قد حفظ لمكة دورا تجاريا مستمرا وغير منته، " وحيث إن النشاط الاقتصادي المادي للإنسان في الإسلام يساير النشاط الروحي، فإن القرآن الكريم، يجعل من موسم الحج فرصة لتبادل المنافع فوق كونه أعظم تجمع إسلامي لممارسة عدد كبير من الشعائر مجتمعة".[٢]

٢ – النقد والصيرفة:

عرف الاقتصاد المكي سواء في المرحلة ما قبل الإسلامية أو في العصر الإسلامي الأول تداول عملات متعددة نتيجة للتيارات النقدية العالمية التي كان يرتبط بها التداول النقدي في مكة كإحدى مواقع التجارة الدولية وقتئذ. فقد كانت ترد على مكة دنانير ذهبية قيصرية من الشام ودراهم فضية كسروية من العراق . وبشكل أقل كثيرا كان تروج نقود حميرية[٣] دون أن يكون لها تأثير أو دور مباشر في تأسيس النظام النقدي الإسلامي لأن هذا النظام سيعتمد لاحقا على النظامين النقديين : الذهبي البيزنطي والفضي الفارسي ليكون ما يطلق عليه بنظام النقد المزدوج أو نظام المعدنيين[٤] . ويرجع سبب

(١) المرجع نفسه، ص: ٣٠ .

(٢) حركات: النشاط الاقتصادي الاسلامي ، ص: ١٢٧.

(٣) فهمي : النقود العربية . ص: ٢٢.

(٤) يراجع كتاب عبدالقديم زلوم:الأموال في دولة الخلافة. دارالعلم للملايين، بيروت، ط:١ ، ١٩٨٧، ص: ١٨٨.

تعامل المكيين بنقود الأمم المجاورة إلى غياب سلطة مركزية في الجزيرة العربية وخضوع أجزاء منها للهيمنة الأجنبية حيث فرضت كل دولة هيمنتها من جهة و من جهة ثانية لتعدد مراكز التجارة الدولية التي تعامل معها الإقتصاد المكي والتي كانت تهيمن عليها الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية واللتان كانتا تمتلكان ولقرون عديدة نظاما نقديا متطورا [(١)] ولم يرد في المصادر التاريخية أن مكة عرفت دارا لسك النقود أو نشاطا لسك النقود، كما لا يعني تداول عملات أن اقتصاد مكة كان اقتصادا نقديا معمما بل كان التعامل يتم بالنقود السائدة وقتئذ إلى جانب التعامل بالمقايضة . ففي مرحلة ما قبل الإسلام الذي استمر في مكة إلى حين فتحها من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم كانت المقايضة تتخذ طريقة تبادل السلع بعضها ببعض . أما في العهد الإسلامي وبدءا من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان البيع والشراء يحصل مقايضة بالسلع، كما كان يحصل بالنقود من الذهب والفضة. وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك كله وأباح التعامل به وفقا لما جاء في أحكام البيوع [(٢)] وساد التعامل في مكة بالنقود المتداولة عندهم بالوزن على اعتبارها تبرا" أي مادة صرفة من ذهب أو فضة غير مضروبة، ويغضون الطرف عن كونها نقودا مضروبة لتنوع الدراهم، واختلاف أوزانها، والإحتمال أن تنقص الدنانير من كثرة تداولها وإن كانت حين ذلك ثابتة الوزن، فلمنع الغبن كانوا يعمدون إلى الوزن" [(٣)].

---

(١) ويراجع أيضا كتاب محسن خليل : في الفكر العربي الاقتصادي الإسلامي، وزارة الثقافة والإعلام، ط : ٢، بغداد، ١٩٨٦، ص :٦٥ و ٦٦.

(٢) يراجع مؤلف : الأموال في دولة الخلافة. لزلوم، ص: ١٩٥.

(٣) زلوم : الأموال في دولة الخلافة. ص: ١٨٨.

ومسألة التعامل بالوزن كانت منتشرة عند العرب قبل الإسلام في مكة وغيرها، فالمقريزي ذكر بأن الدينار كان "يسمى لوزنه دينارا، وإنما هو(تبر) ويسمى الدرهم، لوزنه درهما، وإنما هو(تبر) . وكانت زنة كل عشرة دراهم ستة مثاقيل"[١] . إلا أن التعامل في تلك الفترة بالنقود وزنا لا ينفي تعاملهم بها عدا كوحدات نقدية ذات معيار محدد، فاهتمام المكيين، بأوزان العملات ونسب تبادل النقود الذهبية بالفضية والعكس يدل على تعاملهم بالعد، لكنهم كانوا يلجأون إلى الوزن عند تداول مبالغ كثيرة وعندما يكون الوزن أسرع من العد مادام عيار الوحدات النقدية قياسيا وثابتا[٢] . ولما جاء الإسلام أقر الرسول صلى الله عليه وسلم التعامل بالدنانير والدراهم وأقر اعتبارها نقدا إضافة إلى إقراره الأوزان التي كانت قريش تزن بها هذه الدنانير والدراهم، كما كانت الزكاة والحقوق الشرعية تؤدى بتلك العملات.[٣]

قال البلاذري في إحدى رواياته : " كانت لقريش أوزان في الجاهلية فدخل الإسلام فأقرت على ما كانت عليه، كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهما وتزن الذهب بوزن تسميه دينارا فكل عشرة من أوزان الدراهم

---

(١) المقريزي : شذور العقود في ذكر النقود. مطبوع مع كتاب النقود العربية الإسلامية وعلم النميات ، لأنستاش ماريالكرملي ، تحت عنوان: النقود القديمة الإسلامية. الناشر، مكتبة الثقافة الدينية ، ط :٢، ١٩٨٧، ص :٣٢ و٣٣

(٢) محسن خليل : في الفكر العربي الاقتصادي الإسلامي. وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ط:٢، ١٩٨٦، ص: ٦٣ .

(٣) أبو عبيد : كتاب الأموال. تحقيق وتعليق ، محمد خليل هراس ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط :٢، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م؛ ص ٤١٣. يراجع كذلك حسان حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي؛ دار النهضة العربية، بيروت ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م؛ص٢٥.

سبعة أوزان الدنانير، وكان لهم وزن الشعيرة وهو واحد من الستين من وزن الدرهم، وكانت لهم الأوقية وزن أربعين درهما والنش وزن عشرين درهما، وكانت لهم النواة وهي وزن خمسة دراهم فكانوا يتبايعون بالتبر على هذه الأوزان، فلما قدم الرسول صلى الله عليه وسلم مكة أقرهم على ذلك."(١)

وذكر ابن خلدون في المقدمة الشيء نفسه، حيث قال: " لما جاء الإسلام أغفل ذلكلسذاجة الدين وبداوة العرب، وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزنا، وكانت دنانير الفرس ودراهمهم، بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن، ويتصارفون بها بينهم."(٢)

وأورد البلاذري في موضع آخر رواية أخرى حيث قال: " كانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية وترد عليهم دراهم الفرس البغلية، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر وكان المثقال عندهم، معروف الوزن وزنه اثنان وعشرون قيراطا إلا كسرا، ووزن العشرة الدراهم سبعة مثاقيل فكان الرطل اثني عشر أوقية وكل أوقية أربعين درهما، فأقر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك."(٣)

ويتضح من هذه النقول أن النقد المعدني، الذهب والفضة هما النقدان الغالبان والمهمان في استخدام المسلمين في فجر الإسلام، والتي ورد ذكرهما في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان. دار الكتب العلمية، بيروت، ط: ١، ١٤٠٨هـ/٢٠٠٠م، ص: ٢٧٧.

(٢) ابن خلدون: المقدمة. ٢/٧٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان. ص:٢٧٦ و٢٧٧.

عليه قائما ﴾.[١]

كما ورد ذكر الدينار والذهب في الحديث النبوي لقوله صلى الله عليه وسلم : " منعت العراق قفيزها ودرهمها ، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر إردبها ودينارها وعدتم من حيث بدأتم". [٢]

وكانت للمسلمين في العهد النبوي معرفة بالمكاييل والأوزان سواء كانت موظفة من طرف الأمم المجاورة لهم أم تلك التي كانوا يستخدمونها بأنفسهم بدليل ذكر الدرهم والدينار في القرآن الكريم والسنة النبوية فلا يعقل أن يخاطب الشارع المكلفين بما لا يفهمونه أو لا يعقلون معناه .

قال المقريزي في الموضوع نفسه : " ولما بعث الله، نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم، أقر أهل مكة على ذلك كله، وقال: " الميزان ميزان أهل مكة " وفي رواية : " ميزان المدينة" .

وفرض رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زكاة الأموال، فجعل في كل خمس أواقي من الفضة الخالصة، التي لم تغش، خمسة دراهم . وهي النواة . وفرض في كل عشرين دينارا ، نصف دينار."[٣]

فالرسول صلى الله عليه وسلم وإن لم يسك أو يصدر عملة خاصة بالدولة الإسلامية الناشئة إلا أنه لم يقر بخصوص الأوزان سوى أوزان قريش.

ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا في ما يخص عدم تعرض الرسول

---

(١) آل عمران ، الآية: ٧٥.

(٢) رواه مسلم: صحيح مسلم، كتاب"الفتن وأشراط الساعة" باب لا تقوم الساعة، الحديث رقم : ٢٨٩٦ ، ١٧٥٩/٤.

(٣) المقريزي : النقود القديمة الإسلامية. ص:٣٥.

صلى الله عليه وسلم للنقود وبقائها في عهده كما كانت في الجاهلية، هو هل كانت الأوزان معلومة والنسب بينها معينة محددة ؟

لقد أرشد الرسول صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الأوزان والمكاييل في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : المكيال مكيال أهل المدينة والوزن وزن مكة.[١]

وهذا يدل على أن وزن الدرهم والدينار كانا معروفين عند أهل مكة معرفة جيدة ولولا ذلك لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اعتمادها في تقدير فروض الزكاة والأنكحة والديات وسائر الحقوق الشرعية."ومن المعروف تاريخيا أن الدرهم يساوي (٢,٩٧٥) غرام، وان الدينار(المثقال) يساوي (٤,٢٥) غرام، وهو ما انتهى إليه الباحثون من الفقهاء والمؤرخين بعد تجارب متعددة أجراها العلماء على وزن الحبوب فكان مثقال الذهب (٧٢ حبة) وكان الدرهم (٥/٢، ٥٠) خمسون حبة وخمسا حبة."[٢]

وعلى حسب ما ذكره البلاذري في بعض مروياته أنه : " كانت لقريش أوزان في الجاهلية فدخل الإسلام فأقرت على ما كانت عليه، كانت قريش تزن الفضة بوزن تسميه درهما وتزن الذهب بوزن تسميه دينارا فكل عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير..."[٣]

---

(١) أخرجه أبو داود: سنن أبي داود، كتاب"البيوع"مراجعة وضبط محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر الحديثرقم٣٣٤٠، ٢٤٦/٣. وفي كتاب الأموال للإمام الحجة أبي عبيدالقاسم بن سلام رواية أخرى، قال:" .. .وتبثه حديثالنبي صلى الله عليه وسلم... المكيال مكيال المدينة والميزان ميزان مكة"ص: ٥١٨. قال ابن منظور في مادة (كيل)المكيال هو الصاع الذي يتعلق به وجوب الزكاة، فهومقدريكيل أهل المدينة دون غيرها، في حين أن الوزن يراد به الذهب والفضة خاصة، لأن حق الزكاة متعلق بهما . لسان العرب ، ٥ / ٣٩٦٩.

(٢) محمد بن علي الحريري: أوراق النقود ونصاب الورق النقدي. مجلة البحوث الإسلامية، العدد:٣٩، ١٤٠٥ هـ، ص: ٢٤٦.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان .ص: ٢٧٧.

وبذلك فإن نسبة الدرهم إلى الدينار: ١٠/٧ وتعني هذه النسبة مساواة الدرهم لسبعة أعشار المثقال، وهذه النسبة تعرف بالنسبة الشرعية، [١] أو وزن بيت المال وهي نسبة مميزة للنقود الإسلامية منذ تعارف عليها أهل مكة حتى الإصلاح النقدي في عهد عبد الملك بن مروان." ويفهم من الحديث النبوي السالف الذكر(حديث بن عمر) أن هذه النسبة الشرعية تكاد تكون حكما شرعيا بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لها تبعا لإقرار موازين مكة. "[٢]

وقد شدد ابن خلدون على أن نسبة ١٠/٧ هي النسبة الشرعية فبعد مناقشته للمسألة، قال : " فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب والأوقية منه أربعين درهما، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار. ووزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير. فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره، خمسون حبة وخمسا حبة وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع."[٣] ثم أضاف في مسألة كون الدرهم والدينار مجهولين حتى وضع عبد الملك بن مروان فأكد جازما وإن كان يتحدث عن العصر الأول للإسلام بأكمله: " والحق، أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر، لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان مقدارهما غير مشخص في الخراج، وإنما كان متعارفا بينهم بالحكم الشرعي على المقدار في مقدارهما وزنتهما ."[٤]

---

(١) محمد ضياء الدين الرايس:الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ٥، ١٩٨٥، ص:٣.

(٢) الحريري : أوراق النقود. ص: ٢٤٦.

(٣) ابن خلدون : المقدمة. ٧٠٣/٢.

(٤) المرجع نفسه، ٧٠٤/٢.

وتبقى النسبة الشرعية بين الذهب والفضة اصطلاحا للمجتمع بغير أن تكون لها علاقة بالكثافة أو الوزن النوعي للذهب والفضة، والتعليل الذي يقبله المنطق الاقتصادي لهاته النسبة أنها تمثل آخر رمز أو قيمة حسابية بلغتها علاقة الذهب بالفضة في سلم علاقات المعدنين النفيسين في التجارة الدولية منذ أقدم العصور، فالنسبة بذلك تعبير عن القيمة التبادلية لسعر صرف أحد المعدنين بالآخر[١] في منطقة كانت منذ أقدم العصور مقسمة إلى منطقتين تجاريتين تعتمدان قاعدتين نقديتين[٢]: بلاد ما بين النهرين وأقاليم فارس وقاعدتهما النقدية هي الفضة تعتمدها بدورها في نقدها ومبادلاتها . وبلاد الشام ومصر والمغرب وقاعدتها النقدية هي الذهب تعتمدها بدورها في نقدها ومبادلاتها . " والحقيقة المفسرة لهذه الوقائع المالية هي تلك المعاهدة التي عقدها البيزنطيون مع الدولة الساسانية بشأن النقود وهي تقتضي بأن يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط وألا يتخذوا نقودا ذهبية سوى النقود البيزنطية الجارية في التعامل."[٣] وكانت كل منطقة نقدية تدعم نقدها عندما تتعامل مع المنطقة الأخرى، ونتيجة لذلك خضع سعر صرف الدرهم الفارسي والدينار البيزنطي لمتغيرات التجارة العالمية، فتأرجحت نسبة الصرف بين النقدين، ففي مرحلة كانت النسبة ١٠/١ ثم صارت ٢-٣-١٠/٤ حتى وصلت النسبة ١٠/٧ وشاعت في بلاد العرب، ولما ظهر الإسلام أقرها في أوزان سك النقود حيث كانت عرفا لدى تجار مكة .[٤]

---

(١) الحريري : أوراق النقود. ص: ٢٤٨.

(٢) يراجع كتاب النقود العربية.لعبد الرحمان فهمي، ص:٣٠ .

(٣) المرجع نفسه، ص: ٣١.

(٤) محمد أحمد إسماعيل الخاروف: وحدات الوزن وآلاتها عند المسلمين، مجلة البحث العلمي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى مكة المكرمة، العدد:٤، ١٤٠١هـ، ص :٤٣٨.

والخلاصة التي يمكن الخروج بها أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقرها قاعدة نقدية قائمة على قاعدة المعدنين(الذهب والفضة) وهو صلى الله عليه وسلم بذلك أقر القاعدة النقدية، [(١)] ولم يقر عملة محددة المعايير والأوصاف لذا كان التعامل يتم بواسطة الوزن وفق أوزان محددة تأسست الأحكام الشرعية بها . وتم اختيار الذهب والفضة نظرا للخصائص التي يتمتعان بها : قيمة ذاتية جعلت قيمتها النقدية ثابتة نسبيا . وإقرار الرسول صلى الله عليه وسلم للذهب والفضة كوسيط للتبادل إشارة إلى ضرورة النقود وأهميتها في الاقتصاد الإسلامي كاقتصاد نقدي خصوصا وأن أحسن من يقوم بدور الوساطة هو الذهب والفضة . وقد وعى المسلمون بذلك حتى اعتبروا الذهب والفضة أصلا النقود أو هما نقود بالخلقة . [(٢)]

وينبغي التشديد على أن الاقتصاد المكي سيعرف تراجعا تدريجيا بعد فتح مكة من طرف الرسول صلى الله عليه وسلم عموما وسينعكس هذا التراجع على التداول النقدي وأعمال الصرافة والأنشطة الائتمانية، لأن مكة ستفقد دورها المركزي وستتقاسمه مع المدينة المنورة عاصمة دولة الرسول والخلافة الراشدة في أوج قوة هذه الخلافة . كما أن التراجع سيستمر نتيجة لعملية الفتوحات واتساع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية حيث سيعرف

(١) تعرف القاعدة النقدية بأنها:" عبارة عن مقدار من قيمة أساسية تساوي دائما وحدة النقد...والهدف من وجود القاعدة النقدية هو أن تكون القوة الشرائية للنقد، سواء كانت عملة أو نقود ودائع، متساوية مع قيمة النقدالأساس"، د.عبدالمنعم السيدعلي: دراسات في النقود والنظرية النقدية، مطبعة العاني، بغداد، ط :٢، ١٩٩٦ ، ص: ٧٣.

(٢) عيسى موسى آدم: آثار التغيرات في قيمة النقود وكيفية معالجتها في الاقتصاد الإسلامي. الناشر دله البركة ، ط : ١١٤١٦ هـ / ١٩٩٣ م ، ص : ٢٨ و ٢٩.

النشاط الاقتصادي بمكة نزيفا سواء برحيل العديد من المكيين للاستقرار والاتجار في الأقاليم المفتوحة أو لعملية التراجع التدريجي لحركة القوافل التجارية بعد فتح طرق جديدة للقوافل يسيطر عليها المسلمون.

ولكن ما تم الاحتفاظ به هو النسبة الشرعية ما بين الدرهم والدينار (عشرة من أوزان الدراهم سبعة أوزان الدنانير) هذه النسبة التي كانت عرفا لتجار مكة وصرافيها ، وأضحت بعد إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لها نسبة شرعية . فقد أقر الخلفاء الراشدون العملات المتداولة كما أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن النقود والتعامل النقدي.(١)



(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص : ٢٧٧.

المصادر والمراجع

١) الإمام أبو داود سليمان بن الأشعث : سنن أبي داود . مراجعة وضبط : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر.

٢) أبو عبيد ، ابن سلام القاسم :كتاب الأموال . تحقيق وتعليق محمد خليل الهراس، دار الكتب العلمية ، ط : ١ ، بيروت لبنان، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦

٣) أبو ضيف، مصطفى أحمد :تاريخ العرب . دار المعارف، ط : ٣، ١٩٨٦ م .

٤) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله : كتاب أخبار مكة .

٥) أمين، أحمد : فجر الإسلام . مطبعة الاعتماد، ط : ٢ .

٦) البلاذري، أحمد يحيى ابن جابر : فتوح البلدان، وضع حواشيه : عبدالقادر محمد علي، دار الكتب العلمية، ط :١ ، بيروت لبنان ١٤٠٢ هـ/ ٢٠٠٠ م

٧) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم :
لسان العرب . دار المعارف .

٨) ابن خلدون، عبدالرحمان بن محمد : المقدمة . تحقيق : علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر، ط : ٣، القاهرة .

٩) الجنحاني، الحبيب :التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام، دار الغرب الإسلامي، ط : ١ ، بيروت لبنان ، ١٩٨٥ م .

١٠) الدوري، عبدالعزيز :
مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي . دار الطليعة، ط : ٢ ، بيروت، ١٩٧٨ م .

١١) زلوم، عبدالقديم : الأموال في دولة الخلافة . دار العلم للملايين، ط : ١ ، بيروت، ١٩٨٧ م .

١٢) حلاق، حسان : تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي " الحياة المالية والاقتصادية والإدارية . دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

١٣) الحموي، ياقوت بن عبدالله : معجم البلدان . بيروت، ١٩٦٨ م .

١٤) الحريري، محمد بن علي : أوراق النقود ونصاب الورق النقدية . مجلة البحوث

الإسلامية، العدد : ٣٩، ١٤٠٥ هـ .

١٥) حركات، إبراهيم : النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط . الناشر إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، ١٩٩٦ م .

١٦) الكتاني، عبدالحي : التراتيب الإدارية، بيروت، دار الثقافة، ١٣٤٧ هـ.

١٧) لومبار، موريس : الإسلام في مجده الأول . ترجمة وتعليق : إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط : ٣، المغرب، ١٤٤١ هـ / ١٩٨٥ م .

١٨) المقريزي، تقي الدين أبي العباس : النقود القديمة الإسلامية أو شذور العقود في ذكر النقود . مطبوع مع كتاب النقود العربية وعلم النميات لأنستاش ماري الكرملي، مكتبة الثقافة الدينية، ط : ٢، ١٩٨٧ م .

١٩) الإمام مسلم : صحيح مسلم، دار ابن حزم، دار المعارف، ط : ١، بيروت، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٥ م

٢٠) عيسى، موسى آدم : آثار التغيرات في قيمة النقود وكيفية معالجتها في الاقتصاد الإسلامي . الناشر : دله البركة، ط : ١، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م.

٢١) علي، عبد المنعم السيد : دراسات في النقد والنظم النقدية، مطبعة العاني، ط : ٢، بغداد، ١٩٩٦ م .

٢٢) الريس، محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية . دار التراث، ط : ٥، القاهرة، ١٩٨٥ م .

٢٣) الخياري، علال : الإقتصاد الإسلامي . شركة النشر والتوزيع، الدارالبيضاء، ١٩٨٨ م .

٢٤) خليل، محسن : في الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي . وزارة الثقافة والإعلام، ط : ٢، بغداد، ١٩٨٦ م .

٢٥) الخاروف، محمد أحمد إسماعيل : وحدات الوزن وآلاتها عند المسلمين . مجلة البحث العلمي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، العدد : ٤، ١٤٠١ هـ.

الأسواق العامة حول مكة المكرمة
ودورها في تشكيل الملامح الأدبية لمكة المكرمة

إعـداد

د. محمد عبد الحليم خليفة

بحث مقدم إلى ندوة

مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية ١٤٢٦هـ

ملخص البحث

لا شك أن الدور الحضاري الذي كانت ولا تزال تؤديه مكة عبر تاريخها المديد، إنما هو دور استمد خطورته من أسباب شتى، بعضها يتصل بإرادة الله عز وجل واختياره إياها، وبعضها يعود إلى أسباب تاريخية، لعبت فيها الأسواق المكية إبان الجاهلية والإسلام الدور الرئيس الذي أسهم في تشكيل الملامح الحضارية لمكة، ورغم أن الأسواق بمكة كانت جزءاً من منظومة الأسواق العربية في شبه الجزيرة، فإن لها خصوصية تجعلها تتفرد عن سائر أسواق العرب، تتمثل في كونها مرتبطة في زمان انعقادها بميقات الحج الزماني، فضلاً عن شهرة هذه الأسواق في الآفاق العربية وأطراف شبه الجزيرة لما كانت تحتويه من زخم أدبي ونشاط تجارى وسياسي واحتكاك اجتماعي، ساعدها في ذلك أزمنة قيامها المتعاقبة، وأمكنة انعقادها المتجاورة، وأهم هذه الأسواق ثلاث : عكاظ، مجنة، ذو المجاز، وفى ظني أن أول الأهمية التي شكلتها هذه الأسواق هي الأهمية الثقافية التي تمثلت – في نظرنا – في أنها خدمت العربية الصحيحة قبيل ظهور الإسلام، إذ عملت على توحيد اللغة العربية الأمر الذي أسهم بعد ذلك في توحيد نظرة العرب الثقافية، كذلك عملت على بلوغ الأدب العربي (إنشاءً ووصفاً) شأواً عالياً من البلاغة التي مهدت لأن ينزل القرآن المعجز ليتحدى هذه البلاغة في أرفع مستوى لها وصلت إليه، كما أن هذه الأسواق أيضاً كانت زاخرة بشتى الأمور التنظيمية الاجتماعية والقانونية الأمر الذي جعل منها محافل رسمية ذات مصداقية ومشروعية في عهودها وعروضها . أضف إلى ذلك

أهمية أخرى اقتصادية جعلت من مكة موضعاً له تأثيره واستراتيجيته تجارياً وسياسياً . وأخيراً كانت هذه الأسواق المسرح الأول الذي شهد الدعوة الجديدة إلى الدين البازغ من بطن مكة انطلقت بأخباره الركبان من أسواق مكة إلى الأحياء كلها حتى غمرهم جميعاً نوره الذي شمل مشارق الأرض ومغاربها .

أولاً : إن المكانة العلمية التي يحوزها إنسان أو تستأثر بها جماعة أو يرتبط ذكرها ببقعة ما من بقاع الأرض، لابد لها من ظروف شتى هيأت لها وجودها وتبلورها ، ثم ظهورها على رأس إنسان أو جماعة أو بقعة . وكما تستمد عين الماء ماءها من أوردة الأرض المنسرية في باطنها عبر أزمنة طوال، وكما تدفع هذه العين ماءها قنوات وجداولاً ، ولكي تستمر رحلة الأخذ والعطاء التي يكمن بين طرفيها الوجود الفاعل للإنسان أو للجماعة أو للبقعة فإننا ننظر إلى مكة بوصفها خلاصة لإرادة إلهية ، ومحصلة لجهد بشري متعاقب عبر الزمان جعل منها هذه البقعة الشريفة المشرفة التي استمدت مكانتها من إرادة الله عز وجل الذي اختارها وتعهدها ، ومن تلك المحصلة البشرية المتعاقبة من أجلها ، ومن ثم أخذت مكة تقوم بدورها في العطاء المتواصل عبر الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وفي ذلك تلتقي مكة مع عين زمزم تلك العين التي تمثل هذه الحقيقة المكية فوجود هذه العين، وشرفها إنما هما راجعان إلى إرادة الله التي أجراها على ضربة جبريل عليه السلام بعقبه أو بجناحيه كما ورد في

الصحيح[1] كما أن هذا الوجود مدين إلى اهتمام العرب بها وحفرها مرة بعد مرة إلى أن أصبحت عيناً قائمة للشاربين، وأخذت دورها في العطاء المتدفق والمتجدد في آن، حتى أن كل مياه الأرض قد تأتي عليها ساعة فتذهب وتجف إلا زمزم التي تقف علامة وشاهداً على التاريخ بعطائها .

ونحن معنيون في هذه الورقة بإلقاء ضوء كاشفٍ بقدر ما يسمح به المقام على جانب من الجوانب التي استمدت منها مكة المكرمة تاريخها ومنزلتها لتواصل دورها التاريخي المقدس الذي أريد لها .

وإذا كانت هذه القرية القاحلة قد قُدر لها أن تكون نقطة تتقاطع عندها الخطوط التجارية العربية قبل الإسلام، فقد قدر لها أيضاً أن تكون مركزاً للجاذبية العاطفية لدى سكان محيطها المعمور سواء أضاقت دائرة الجزيرة العربية أم اتسعت لتشمل الأرض كلها فتظل بوصلة كل فؤاد متجهة شطر بيتها ، وما أبلغ التعبير القرآني ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [2] .

ولقد قدر لها ثالثاً أن تكون مهرجاناً أدبياً علمياً ، ورحماً للغة

(1) عن عبد الله بن عباس ﷺ قال : قال النبي ﷺ : فلما أشرفت – يقصد هاجر – على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه – تريد نفسها – ثم تسمعت أيضاً فقالت : أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ...) الحديث – صحيح البخاري، جـ2، حاشية السندي، ص 235 .

(2) إبراهيم، الآية 37 .

العربية، يُرعى أصولها ويدعم نموها، وبوتقة تنصهر عندها لهجات شتى من لغات اللسان العربي، وهذه الأخيرة هي التي تحاول الوقوف بإزائها وإخضاعها لمرآة مكبرة حتى نقف أو نقترب من أحد الروافد الذي ظل حقبة من الزمان يدعم مكة وينزلها منزلتها العلمية الرائدة حتى كانت – ودون مبالغة – مركزاً إشعاعياً لثقافة العربية قرآناً وشعراً ونثراً تقدمه في رحلة العطاء لمن حولها من بقاع الأرض قاطبة سهلاً ميسوراً ناضجاً مستوياً .

وبحثنا الذي نعنى به سيولي اهتمامه في الأساس تلقاء أحد الروافد التي سبق أن أشرنا أنها جعلت لمكة هذه المكانة العلمية والأدبية خاصة بعدما شهد التاريخ حدثاً مهماً وحداً فاصلاً في صيرورته الزمنية، وعلامة فارقة بل منعطفاً حاداً في تاريخ البشرية الفكري بعامة وأعني به حدث بزوغ نجم الدين الإسلامي في سماء رانت عليها ظلمة الجهل ردحاً طويلاً من الزمن .

فإذا كانت هناك مجموعة من الأسباب عملت جميعها على دفع حركة الفكر والأدب إلى الأمام إبان ظهور الإسلام، فإنّا نركز في السطور التالية على أحدها متمثلاً في المهرجانات الأدبية والمحافل الثقافية التي كانت سرادقها تشاد بمكة متمثلة في أسواق جُعلت أول ما جُعلت للتجارة غير أن الله قد قدَّر لها أن تكون موضعاً للاحتكاك الثقافي بين سكان الجزيرة العربية شمالها وجنوبها، وبين شتى قبائلها المنتشرة في نجد والحجاز، بالمعنى الذي يقصده المعاصرون من وراء مصطلحي " المثاقفة والتثاقف "، أجل فقد كانت ه الأسواق المكية مسرحاً للتغلغل الأدبي في شتى منطلقاته القبلية

والفكرية وكذا الأسلوبية .

والمتأمل فيما شغلته مكة ببيتها الحرام وأسواقها المجاورة فضلاً عن كونها ملتقى سكك القبائل من الجنوب إلى الشمال يتأكد له أنه ثمة إرادة إلهية ترتب وتهيىء لمكة دوراً ما محورياً تحمل فيه تبعة الريادة الفكرية والأدبية بعدما ظهر أهميتها الاقتصادية التي أتتها من القوافل التي تزورها للحج والتجارة محملة بألوان شتى من خيرات بلدان هذه القوافل شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً، الأمر الذي يكشفه قول الله عز وجل حينما امتن على أهل مكة قائلاً: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [2] .

إضافة إلى كل ما سبق هناك إرادة إلهية أخرى في اختيار عناصر معينة متمثلة في قبيلة قريش التي سكنت بطاح مكة . ويُكتب لها الغلبة اللغوية المستمدة من سلطانها على البيت الحرام .

وعلى أية حال نحاول صياغة سؤال علمي، ثم نتبع ذلك محاولة أخرى في الإجابة عنه، فالسؤال الذي يطرح نفسه إذن كيف تأتّى للأسواق المكية أن تضيف إلى مكانة مكة العلمية والأدبية ؟ وما مظاهر هذه الإضافة وما قيمتها بالنسبة للمسلمين والإسلام بعامة؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب تتبع الأخبار التاريخية،

---

(١) القصص الآية ٥٧ .

(٢) العنكبوت الآية ٦٧ .

والاقتراب أكثر من تلك البيئة، والإحساس بظرفها الاجتماعي، ومعايشة ملابساتها الاقتصادية والاجتماعية، للوقوف على صورة أكثر دقة وقرباً من الواقع التاريخي والاقتصادي الذي لازم نشأة هذه الأسواق، وحايث تطورها عبر الزمن، وشهد على ما اضطلعت به من أدوار رفدت النهر المكي وغذَّت شرايين الحياة الأدبية والثقافية، لتضمن الحيوية والتجدد، لمواصلة رحلة العطاء.

وسبيلنا في رسم صورة واضحة الأبعاد والمعالم لتلكم المواسم الخصبة أن نتعرف على ملامحها بتقليب صفحات التاريخ من جهة، ثم إكمال ما يبدو من نقص فيها بالفزع إلى الشعر الذي نَظَمَه بعض شعراء الجاهلية والإسلام من المخضرمين خاصة، وهم أولئك الشعراء الذين كانت لهم بهذه الأسواق صلات فاعلة وتجارب تشهد بغشياتهم إياها، كما تعكس من جانب آخر ما بلغته هذه الأسواق من شأو في أنفس مَنْ كانوا يحجون إليها، وما كانت هذه السبيل الثانية إلا لقناعتنا التامة بأن الشعر العربي ديوان العرب وسجل حيواتهم وأنه ذو قيمة وثائقية غنية، تسد بعض الثغرات التاريخية وتسهم في تقريب الصورة وتعمل على إيضاحها، لأنه يصور بدقة الحياة العربية لا في بعدها التاريخي الموضوعي فحسب، بل في نقله ما اكتنف هذه الحياة وحوادثها من شعور بالحب أو بالازدراء وبالإجلال أو بالانتقاص. وربما لا تنتقص هذه النظرة الوثائقية للشعر من كونه فناً لغوياً خالصاً يمتع قارءه بما يدفعه إلى وجدانه من موجات جمالية تشبع الوجدان كما تشبع العقل، فلا يزال الشعر العربي منذ أقدم عصوره يقنع العقل ويرضي الفكر، كما يُمتِّع الحس ويدغدغ العواطف الإنسانية.

وخلوصاً من التجريد إلى التحديد نتجه صوب الموضوع لنؤكد بعض الحقائق التاريخية .

ثانياً : وأول هذه الحقائق التي يجب أن نجملها قبل أن نتجه صوب تفصيلها ، هي " حقيقة الأسواق " التي كانت قبل الإسلام، إذ كان ظهور هذه الأسواق حتمياً ، عَكس حاجة الإنسان بوصفه كائناً اجتماعيا لا يعيش وحده وإنما هو جزءٌ لا يتجزأ من منظومة اجتماعية في القبيلة أو العشيرة وفي منظومة أكبر هي المنظومة الإنسانية . والأسواق عموماً تعد ظاهرة حضارية تعكس ما وصلت إليه المجتمعات الإنسانية من تمدن في السلوك وتحول يفرضه عليها قانون التطور الإنساني الذي يحيل المجتمعات البدائية إلى أخرى زراعية وصناعية وتجارية ، وكلما تطور الإنسان ازدادت حاجاته وتبعاً لذلك ازدادت حاجته إلى السوق بوصفها المعرض الذي ينتهي عنده المحصلة النهائية للإبداع في شتى المجالات ، ولقد كان للبيئة البدوية في شبه الجزيرة العربية أثر عظيم في اهتمام العرب في البادية وفي الحضر بالأسواق ، فهي إن ملكت بضاعة افتقدت أخرى فتطلبها في الأسواق ، ولذا تعددت أسواقهم من حيث العدد وتمايزت من حيث الأهمية التي تعود إما لموضعها أو لزمن انعقادها ، كما تمايزت من جانب آخر حيث حجم السوق ونوع البضاعة الغالبة عليها .

ولقد اختلف بعض العلماء في حصر عدد الأسواق التي كان

يعرضها العرب، وقد لخص أحدهم [1] هذه الآراء المختلفة، فبينما نرى القلقشندي في صبح الأعشى يعدها ثمانياً نرى اليعقوبي في تاريخه، والبغدادي في خزانته يعدانها عشراً، ثم يختلفان عليها فيذكر كل منهما بعضاً ويترك بعضاً، ونراها عند المرزوقي في كتابه الأزمنة والأمكنة تبلغ سبع عشرة سوقاً، ثم يأتي الآلوسي في كتابه بلوغ الأرب فيذكر منها أربع عشرة.

وعلى أية حال فإن هناك تقسيماً آخر لمجموع هذه الأسواق يحسن أن نضعه نصب أعيننا قبل التفصيل في أسواق مكة على وجه الخصوص، فقد قُسمت هذه الأسواق تبعاً لمن تخضع له ويبسط عليها نفوذه وهي على النحو التالي :

أ- أسواق [2] خاضعة لنفوذ أجنبي، تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية، كما نرى في " الحيرة " و " هجر " و " البحرين " و " عمان " وغيرها من المواطن التي تدين عليها السيطرة الفارسية . وكما نرى في " بصرى " و " أذرعات " و " غزة " و " أيلة " وغيرها مما يدار بالإدارة الرومانية . والذي ينظر في هذه الأسواق عمال عرب يعينهم ولاة الفرس وولاة الرومان، وهؤلاء العمال الذين يتولون السوق هم الذين إليهم أعشار أهلها .

ب- أسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة فصارت مع

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ت. سعيد الأفغاني، ص١٨٠، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ١٨١ – ١٨٢، ت. الأفغاني .

الزمن تمثلهم أصدق تمثيل في عاداتهم في البيع والشراء والخصام والدين والزواج والحقوق، ولا يشرف عليها إلا سراة أهلها، وهي مرآة العرب في الجاهلية وبها نستطيع أن نعرف كل ما كان عليه العرب تقريباً في معاملتهم وعلائقهم بعضهم ببعض . وهي في أماكن لا أثر للنفوذ الأجنبي عليها وتمثل لهذا القسم بعكاظ . ولا عاشر في هذا القسم والعرب يتبايعون فيه ببيوع خاصة بهم .

ج ـ أسواق ذات صبغة مختلطة، نظراً لموقعها الجغرافي وهي التي تكون على البحر " كعدن " و " صحار " و " دبي " وفى هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس ويضؤل فيها الطابع القومي بمقدار ما يقوى شأنها التجاري .

ثالثاً : أما مكة فقد شهدت في جاهليتها وحتى بعد ظهور الإسلام ثلاث أسواق كبرى [١] ، احتفى بها جميعاً العرب ومَنْ جاورهم بأطراف الحيرة والغساسنة شمالاً واليمن جنوباً، فأولاها سوق عكاظ، وثانيها سوق مجنة، وثالثها سوق ذي المجاز وهي أسواق قُدر لها أن توجد على التعاقب الزمني وليس على التزامن المكاني، بمعنى أنها لم تكن معقودة ومتعاصرة في زمن واحد بمواضع شتى، بل كانت محكومة بالزمن، فأولاها إذا أقيمت ثم انفضت جاء دور

(١) وذكر الإمام الحافظ الفاسي أن هناك سوقاً مكية رابعة لأزد تسمى سوق " حُبَاشَة " على بعد ست ليال من مكة ناحية اليمن، وكانت تقام ثلاثة أيام من شهر المحرم، لذا فهي ليست ضمن أسواق موسم الحج، وكانت آخر ما خُرب من الأسواق عام ١٩٧ هـ عندما جرد والى مكة إليها جيشاً فخربها لأن أزداً قتلت واليه عليها، = راجع شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ٢٨٤ لأبي الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي، تحقيق وتعليق لجنة من كبار العلماء .

الثانية عقبها فإذا انفضت وانتهى وقت انعقادها أقيمت الثالثة عقبها في أزمنة مخصوصة متعاقبة ومواضع شتى حول مكة . واللافت في أصل المرجعية التي جعلت من أزمنة انعقاد هذه الأسواق محكومة بشهور مخصوصة من العام، يتأكد لديه أنها مرجعية تاريخية دينية تعود إلى أصل الديانة الحنيفية التي وضعها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام وإلى بيت الله الحرام بمكة الذي رفعا قواعده بأمر من الله في اختيار مكانه من الأرض ووقت الحج إليه حينما انطلق الأمر الإلهي واضحاً وعاماً ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [1] .

ورغم ما جرى على ديانة إبراهيم من تقلص، وتبديل أجيال تلو أجيال لقواعدها المتمثلة أساساً في عقيدة الوحدانية إذ ظهرت الوثنية وجلبت الأصنام إلى مكة ووضعت بالكعبة حتى بلغت ثلاثمائة وستين صنماً قبيل عهد الإسلام، أقول رغم ما حدث من تغيير من عهد إسماعيل إلى عهد الوثنية الأخيرة فإنه قد بقي الحج إلى بيت الله الحرام عقيدة يحرص عليها الناس ويعدّون له عُدتهم ويتحملون وعثاء السفر إليه ضاربين أكباد الإبل عبر المفاوز والجبال والشعاب حتى يهبطوا وادي مكة في أشهر الحج وهم راضون فرحون ببلوغهم مرادهم بقطع النظر عن شركهم وأنهم يتجهون إلى أصنام لهم قدسوها ظانين إنها تقربهم إلى الله زلفى، المهم أن العرب وإن دخلتهم الوثنية فانحرفت بعقيدتهم من التوحيد إلى الشرك إلا أنهم كانوا

(١) سورة الحج، الآية ٢٧ .

حريصين على موسم الحج كل عام إلى هذه البقعة وهذا ما يهمنا في هذه النقطة . إذ أنه لولا حجهم في جاهليتهم إلى بيت الله بمكة ما كانت هذه الأسواق لتوجد وتكون في الأصل، ومما أكد في نفوس عرب الجزيرة جميعاً وغيرهم في الشمال قدسية بيت الله، وزكى إجلالهم له حادثٌ يعد علامة لا تمحى في ذاكرتهم إنه حادث الفيل وجيش إبرهة الجرار الذي جاء لهدمه فتكفل ربُّ البيت بدحره والتنكيل بجيشه وإظهار قدرته في أعدائه تأكيداً لجميع خلقه بحرمه بيته، تلك الحرمة التي امتدت لتشمل مكة كلها بأسواقها الثلاث، التي سنقف الآن عندها ونستعيد جوها التاريخي .

أ – عُكَاظ : هي أولى الأسواق الثلاث وأكبرها وأهمها بل أعظمها [1] ، وقد اختلف الباحثون [2] في تحديد مكانها . وأقرب ما يمكن استخلاصه من آرائهم في موقعها أنها كانت بأعلى نجد في أرض هي من ديار قبائل قيس بن عيلان بن مضر، شمال الطائف،

(1) معجم البلدان لياقوت الحموي، جـ٤، ص ١٤٢، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ .

(2) راجع في ذلك :

أ- الأزمنة والأمكنة لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني، جـ٢، ص١٦٥، مطبعة دائرة المعارف، بحيدر أباد الدكن (١٣٣٢هـ) الهند .

ب- موقع عكاظ، دكتور عبد الوهاب عزام، ص ٤٣- ٥٣، دار المعارف بمصر، ١٩٥٠ .

جـ- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جـ١، ص ١٩٠ جـ٢ ص ٣١٠ لأبي الوليد محمد عبد الله الأزرقي، طبعة دار الأندلس (١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م) بيروت عن نسخة حققها ونشرها بمكة رشدي الصالح ملحس، سنة ١٣٢٥هـ - ١٩٣٣ م .

د- معجم البلدان لياقوت الحموي، جـ٤، ص ١٤٢، جـ١، ص ٤٤٩ .

هـ- الأغاني، جـ٢٢، ص ٦٤ لأبي فرج علي بن الحسين الأصفهاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧م .

وشمال شرق وادي نخلة، وراء قرن المنازل بنحو أربعة وعشرين ميلاً أي مسيرة ليلة واحدة على طريق المسافر من مكة إلى اليمن .

وكما اختلف الباحثون في تحديد موضعها، اختلفوا أيضاً في تحديد تاريخ بدايتها الزمني، وقد لخص عرفان حمور [١] آراءهم، فالباحثون ما بين فريقين أحدهما يذهب إلى أنها قد بدأت في الظهور على مسرح التاريخ في أواخر القرن السادس الهجري، وربما حدد محمود شكري الآلوسي [٢] تاريخها بعام ٥٨٥ م، وقد تابعه في ذلك محمد حسين هيكل [٣] . وثانيهما ذهب إلى أقدم من ذلك كأحمد أمين [٤] ، وانتهى سعيد الأفغاني [٥] إلى أنها أي سوق عكاظ قد بدأت في حوالي عام ٥٥٠ م وربما إلى أول القرن السادس، وربما تستطيع النصوص الأدبية أن تؤيد الرأي الثاني باعتبارها وثائق تاريخية، يقول النابغة الجعدي [٦] من الكامل :

ولقد شهدتُ عكاظ قبل محلّها ... فيها، وكنت أُعَدُّ في الفتيان

والمنذر بن محرقٍ في مُلكه ... وشهدتُ يوم عجائن النعمان

---

(١) سوق عكاظ ومواسم الحج، ص ٢٠٣-٢٠٦ ت . عرفان محمد حمور، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت، ط١، ٢٠٠٠ .

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، جـ١، ص ٢٧٠ شرح محمد بهجة الأثري، دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الثالثة .

(٣) في منزل الوحي ٣٦٣-٣٦٤ مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م)، القاهرة .

(٤) عكاظ والمربد – مجلة الرسالة لسنة ١٩٣٣، ١٣- ٢٥ .

(٥) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٢٠٩، ت . سعيد الأفغاني .

(٦) ديوان النابغة الجعدي، ص ١٧٦، جمع وتحقيق د . واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨ .

ويقول [١] في أخرى من الوافر :

فمن يكُ سائلاً عني فإني   من الفتيان أيامَ الختانِ

فالنابغة وكما يبدو من الأبيات كان لا يزال فتى [٢] (وحينما ملك الحيرة المنـذر بن ماء السماء نحو سنة (٥٠٦م) وكان شاباً كذلك أيام " الختان "، وهو مرض خطير وقع في عهد المنذر، ففتك بالناس والإبل، فأرّخوا به إذ عدوه من الحوادث العظام، وقال أنه عاش حتى أدرك زمن الملك النعمان بن المنذر (٥٨٣–٦٠٤م) . ثم أدرك الإسلام، فأسلم وكانت له صحبة وتوفى نحو (٦٧٠م) عن عمر طويل، قيل أنه بلغ مئة وثمانين سنة أي أن مولده كان نحو (٤٩٠م) وشهوده عكاظ كان في أوائل القرن السادس وربما منذ سنة (٥٠٥ م) أيام حداثته) .

ويضيف المخبل السعدي معلومات تاريخية تؤكد التاريخ نفسه حينما يفتخر بجده سعد بن زيد مناة، يقول من الطويل [٣] :

لياليٌ سعدٍ في عكاظ يَسُوقُها   له كل مشرقٍ من عكاظ ومغربِ

والبيت يورد أيضاً أمر القضاء وعكاظ، ويؤكد أن الحكومة فيه كانت لتميم فلقد اتفق أهل الأخبار [٤] على أن (سعد بن زيد مناة بن تميم هو أول من اجتمعت له الخصلتان معاً من بني تميم : إمامة الموسم، والقضاء

---

(١) ديوان النابغة الجعدي، ص ١٧٨ .

(٢) سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . عرفان حمور، ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٣) الأزمنة والأمكنة، جـ٢، ص ١٦٧ للمرزوقي .

(٤) سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . حمور، ص ٢٠٦ .

بعكاظ، ومعنى هذا أن إحداهما كانت في أبيه، والأخرى كانت في عمه عمرو بن تميم، ثم صارتا بعدئذ إرثاً في أبنائهما) . ولقد ظلت سوق عكاظ تقوم بدورها الثقافي والاقتصادي – كما سيأتي بسط ذلك – ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان، إذ أنه لو صح تاريخ بدايتها في أوائل القرن السادس الميلادي – كما أشرنا – فإن التاريخ يؤكد أن نهايتها وانصراف العرب والمسلمين عنها جاء في حوالي عام ٧٤٧م، وتحديداً في عام ١٢٩ هـ، وكانت بداية خرابها وزهد الناس فيها مجموعة من العوامل لعل أهمها دخول المختار بن عوف الأزدي الحروري الأباضي على رأس جيش من الخوارج مكة واحتدام الصراع [١] بها حيث عمل على تخريب بعض المواضع منها سوق عكاظ، ولعل هناك أسباباً أخرى قد أسهمت بشكل فعال في انتهاء دور عكاظ الثقافي والتجاري، إذ انصرف كثيرٌ من رواد هذه السوق من الأدباء والشعراء إلى الدين الإسلامي يستذكرون القرآن والحديث منشغلين بالدين الجديد عن عصبية ما قبل الإسلام التي كانت مظاهرها واضحة فيما كان يعرض بعكاظ من أشعار ومنافرات، وهناك أسباب أخرى قضت على دور عكاظ الاقتصادي إذ نافسها في شبه الجزيرة العربية خاصة في البلدان المفتوحة شمالاً وشرقاً عددٌ من الأسواق التي ازدهرت وأصبح لها دور يؤبه له أكثر من عكاظ وغيرها من الأسواق الجاهلية، أما موعد انعقاد سوق عكاظ فهناك شبه إجماع من بين المؤرخين إنه إذا أهلَّ هلال ذي القعدة انعقد السوق ليظل قائماً مدة عشرين يوماً، ليأخذ سوق مجنة العشرة الأواخر من ذي القعدة، ثم يأتي دور ذي المجاز ليأخذ الأيام الثمانية الأولى من ذي الحجة حتى يوم التروية، والواضح أن هذه الأسواق كانت مرتبطة بشهور الحج إذ يجدها

(١) أخبار مكة، جـ١، ص ١٩٠، ت. الأزرقي.

حجاج البيت فرصة للتجارة وما إلى ذلك من أمور حياتهم الشخصية، يقول ابن عبد ربه [١] : (وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتهيؤ للحج من أول ذي القعدة إلى وقت الحج) . ومعنى ذلك أن هذه الأسواق المتعاقبة إنما ارتبطت في نشأتها بموسم الحج كما أشرنا سابقاً إلى مكة كل عام، فغاية انعقاد تلكم الأسواق على اختلافها هو الحج الذي كان هو الغاية الأعلى والهدف الذي أوجد هذه الأسواق وحدد لها أزمنتها، ولعل عرفات ومنى كانا سوقين هما الآخران [٢] . وقد ذكر الأزرقي أن العرب كانوا كلما أهلّت شهور الحج وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، يخرجون إلى مواسمهم في عكاظ ومجنة وذي المجاز وعرفة ومنى، فهذه مواسم الحج (وكانوا يقولون : لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنة وذا المجاز إلا محرمين بالحج) [٣] .

ب- أما سوق مجنة : فهي ثانية أسواق موسم الحج، كانت تلي سوق عكاظ زماناً، وهناك شبه اتفاق على موضع سوق مجنة بأنها كانت تعقد شمال مكة على بعد اثني عشر ميلاً بوادي مر

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه أحمد بن محمد الأندلسي، جـ٥، ص ٢٥٣ شرح أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، لبنان، ١٩٨٢ م .

(٢) نعم كان عرفات ومنى يمثلان سوقين، وكان العرب يحرمون التجارة عند حجهم بعد ذي المجاز حتى أباح لهم الله التجارة إلى جانب الحج ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (البقرة الآية ١٩٨) وذكر الأستاذ محمد الطاهر بن عاشور في شرحه ديوان النابغة الذبياني ص٢١٩ حاشية رقم (١) أن الأسواق التي كانت للعرب قبل الإسلام في أثناء حجهم هي عكاظ ومجنة وذو المجاز وزاد عرفات وحنين .

(٣) أخبار مكة، جـ١، ص ١٨٧، ١٨٩، ١٩٢، وراجع سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . حمور ص ٢١١ .

الظهران [١] قرب جبل الأصفر شمال مكة، وكانت السوق تقع في بني الدئل خاصة من كنانة، ويبدو أن مجنة كانت منطقة معروفة بطيب هوائها وصفاء مائها يبدو ذلك من قول حسان بن ثابت يتمنى فيه أن يبيت ولو ليلة بمنطقة فخ حيث وادي الزاهر بمكة وحيث تحيط به الأعشاب طيبة الرائحة ويشرب من ماء مجنة بجانب جبلي شامة وطفيل إذ يقول [٢] :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ
ليلة بفخ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أرِدن يوماً مياه مجنةٍ
وهل يبدون لي شامة وطفيل

أما ميقات انعقاد هذه السوق فكان في العشر الأواخر من ذي القعدة أي بعد انفضاض سوق عكاظ تواصلاً مع موسم الحج، وكان من يفوته شراء شئ أو بيعه أو عرض أدبه أو أسير له، أو البحث عن ثأر أو غيره في سوق عكاظ طلبه في سوق مجنة إذ أن مجنة كانت تقوم بكل ما كانت تقوم به سوق عكاظ من أنشطة تجارية وأدبية، ويبدو أن الخمر كانت قبل الإسلام من أشهر السلع التي كانت ينتظرها حجاج مكة ليبتاعوها إذ أنها تجلب خصيصاً إلى مجنة من

(١) أخبار مكة، جـ١، ص ١٩٠، وصحح القاضي عياض بعدها عن مكة بثلاثين ميلاً أي بريدين، نقل ذلك ووافق عليه الفاسي في شفاء الغرام، ص ٢٨٤ .

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر، جـ١٠، ص ٣١٩–٣٢٠، مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق ومعجم البلدان، جـ٥، ص ٥٩، ولم أجد الأبيات بديوان حسان .

بصرى وغزة، فأبو ذؤيب الهذلي يصف أجود أنواع الخمر وهي السلافة داخل دنان مطلية بالقار لحفظها توضع خلف الراكب تُشترى من سوقي بصرى وغزة شمالاً وتحمل فوق نياق قوية تحتمل سير هذه المسافات الطوال حتى تأتى بها سوق مجنة صافية رائقة لذة للشاربين

يقول [١] :

سُلافةُ راح ضمَّنتها إداوةٌ مُقَبرّة ردف لمؤخرة الرَّحل

تَزَوَّدَها من أهل بُصرى وغَزَّةٍ على جَسْرةٍ مرفوعة الذَّيلَ والكِفْل

فوافى بها عُسْفَانَ، ثم أتى بها مَجَنَّة تصفو في القِلال ولا تغلى

وقد آلت سوق مجنة إلى ما آلت إليه سوق عكاظ من إهمال بعد الإسلام، إذ انصرف عنها المسلمون لخير منها، ولم يعد لها كبير أثر في دفع الحركة الأدبية والعلمية وكذا التجارية بعد الإسلام .

جـ ذو المجاز : هي ثالثة الأسواق انعقاداً بعدما تنفض سوق مجنة، وتقع هذه السوق على بعد ثلاثة أميال من الموقف بجبل عرفات بالقرب من جبل كبكب الذي يجعله الواقفون بعرفات خلف ظهورهم [٢] وكان لبني هذيل بن مدركة وفيها يقول المتوكل الليثي [٣] :

---

(١) معجم البلدان، جـ٥، ص ٥٩ .

(٢) أخبار مكة، جـ١، ص١٩١، ومعجم البلدان، جـ٥، ص ٥٥ وجـ٥، ص ٥٦٥ .

(٣) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي، جـ٥، ص ٥٥ .

للغانيات بذي المجاز رسوم ... في بطن مكة عهدهن قديم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت، عظيم

ويبدأ انعقاد السوق عندما يهل هلال ذي الحجة إذ ينصرف الحجاج ولا يزالون محرمين من مجنة إلى ذي المجاز حتى اليوم الثامن منه وهو يوم التروية، إذ ينزلون بذي المجاز ليتروا من الماء وكان ذو المجاز ذا أهمية وخصوصية عن سابقيه لوجهين :

الأول : أنه كان يعد آخر الأسواق الكبرى في موسم الحج فعلى من لم يستطع أن يبيع أو يشتري شيئاً أو يعرض بضاعة أدبية أو اجتماعية في عكاظ أو مجنة أن يدرك ذا المجاز ليقضي فيه وطره قبل انقضاء موسم الحج، والوجه الثاني : هو أن العرب كانت تبيح في موعد هذه السوق بذي المجاز التجارة إلى جانب نسك الحج، إذ يحل للحاج الجمع بينهما، ذلك لأنه سيحرم عليه في عرفة ومنى أن يتجر بشيء ليتفرغ للعبادة حتى جاء الإسلام وأباح الرسول للحجيج أن يتجروا في هذه الأيام .

رابعاً : الأسواق الثلاث ومكانتها

لقد كانت لهذه الأسواق مكانة خاصة في نفس زوارها الذين جاءوها من كل حدب وصوب من شبه الجزيرة العربية وأطرافها، وهذه المكانة قد اكتسبتها مكة ذاتها بوصفها موضع البيت الحرام الذي يحمل كل زواره له مكانة خاصة في القلوب، وإذ علمنا أن هذه الأسواق قد ارتبطت تاريخياً بموسم الحج أصبح واضحاً لدينا مدى ما كان لها من منزلة مقدسة حتى أنهم كانوا يقولون لا تنزلوا هذه

الأسواق إلا وأنتم محرمون، من هنا اكتسبت هذه الأسواق مكانتها من مكة وحرمها، ومن كونها كانت تعد جزءاً من موسم الحج في أشهر الحج، وهذا بالضبط ما جعلها على عكس غيرها من الأسواق معفاة من أنواع الضرائب التي كانت تفرض في نظائرها من الأسواق يقول أحدهم في ذلك [١] : (ليس فيها مكاس ولا عشار لأنها لم تكن في ملك أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء)، فلم تكن هذه الأسواق كغيرها من الأسواق في أطراف شبه الجزيرة العربية تقع في حوزة ملك من الملوك يستبد بها ويفرض فيها العشور والضرائب إضافة إلى أنها – كما قلنا سابقاً – كانت مشمولة بحرمة موسم الحج إلى بيت الله الحرام بمكة، بل كانت هذه الأسواق تحظى باحترام الأمراء والكبراء من ملوك الشمال الذين كانوا على بعدهم الجغرافي عنها يعرفون قدرها وقيمتها المحورية في المنطقة . الأمر الذي كان يدفع بعضاً منهم خاصة ملوك العراق إلى أن يحيطوا هذه الأسواق برعايتهم وعنايتهم [٢] (وأن يضعوا الجوائز القيمة باسم الشعراء البارعين)، بل أكثر من ذلك كان أهل مكة ذاتهم هم الذين يأخذون ضرائب من التجار الذين كانوا ينزلون مكة في رحلاتهم التجارية وعرفت هذه الضريبة بـ " الحريم " [٣] .

---

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ت. سعيد الأفغاني، ص ٢٥١ .

(٢) سيد قريش، جـ٢، ص ٢٢–٢٣، ت. معروف الأرناؤط، مطبعة فتى العرب، ١٣٥٠هـ–١٩٣١م، دمشق

(٣) الاشتقاق لابن دريد نقلاً عن شوقي ضيف العصر الجاهلي، ص٥٠.

فما كان لهذه الأسواق الثلاث أن تأخذ مكانها على خارطة أسواق العرب إلا لأنها كانت تقع في حمى مكة التي ألقت عليها غلالة قداستها وشيئاً من حرمتها وقدسيتها في النفوس[1] (يقول ابن الفقيه إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط، ودانت لهم خزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحل إذا دخلوا الحرم، وهم بعد أعز العرب، يتأمرون عليهم قاطبة) .

بقي لنا أن ننظر إلى هذه الأسواق الثلاث من حيث أهميتها ، لا في ذاتها فحسب، وإنما في دعمها للنهضة العلمية والثقافية ، وبصيغة أخرى إننا في حاجة ماسة للتعرف على مدى ما أسهمت به من دور فاعل في دفع حركة العلم أو الثقافة على وجه العموم إلى الأمام، وكانت هذه الأسواق تمثل دوراً مؤثراً في الحركة الثقافية إلى جانب أدوار أخرى جعلت من مكة المكرمة مركزاً ثقافياً عالمياً إلى كونها كعبة حجاج الأرض ومنطلق دعوة السماء إلى أهل الأرض بالتوحيد ، ودين الله الحنيف . ولذلك سنحاول في السطور التالية تحديد الدور الذي لعبته هذه الأسواق، وهذا الدور يتمثل في الأساس في أهميتها التي يمكن عزوها إلى : أهمية ثقافية ، واقتصادية ، وفكرية كلها يعكس ذلك الدور الحضاري الذي أدته أسواق مكة في الجاهلية وفي الإسلام .

---

(١) نقلاً عن العصر الجاهلي، ضيف .

أ- الأهمية الثقافية

ولأن الثقافة في أعم معانيها تشمل أدوات شتى ينتمي بعضها إلى اللغة كأحد طرق التواصل بين أفراد المجتمع الواحد وغيره من المجتمعات . والأدب بوصفه فناً لغوياً انتهت عنده اللغة إلى كامل نضجها وتمامها ، ومن هذه الأدوات الثقافية أيضاً مجموعة العلاقات الاجتماعية التي كانت تمثل بنية المجتمع بقبائله وعشائره وما يتصل به من عادات وتقاليد ، لذلك فيمكننا تلخيص هذه الأهمية في ثلاثة أبعاد تشكل هذه الأهمية الثقافية .

١- في جانب اللغة العربية :

لقد شاء الله لأسواق مكة أن يكون زوارها من أمشاج مختلطة من الأجناس البشرية التي كانت تسكن شبه الجزيرة العربية وما حولها من إمارات الجنوب اليمني والشمال العراقي والشامي، وأتخيل أن من كان ينزل هذه الأسواق ليلتمس حاجة له، لسمع لهجات عربية شتى، كل منها ينتمي إلى اللسان العربي الأم، وإن كل واحدة من هذه اللهجات العربية تحتفظ بخصائصها الصوتية الخاصة بها ، وإلى جانب هذه اللغات العربية أتصور أنه قد كان هناك من غير العرب من كان يتحدث بلسانه الفارسي أو الرومي ثم إذا تكلف العربية لحن، فالسوق إذن كانت مسرحاً بل معرضاً للغات شتى ما بين فصيح بدوي وآخر حضري وبين لفظ أجنبي ولحون يلحظها زائر إحدى هذه الأسواق وسط المنشد لقصيدة والهاتف لعصبية والزاعق لبضاعة، غير أن هذه الأسواق - خاصة عكاظ - كانت

بمثابة الغريال الذي أخذ ينخل اللغات ويقوم بعملية اصطفاء للفصيح منها، وما كان هذا إلا من خلال الاحتكاك بين أصحاب لغات العرب بعضهم ببعض، فإذا هم يجلسون ويتحدثون ويتحاورون ويقوّمون ما اعوج من ألسنتهم. وهذا الاحتكاك الثقافي اللغوي كان غالباً داخل سرادقات أدبية ومهرجانات شعرية، تتوازى مكاناً وزماناً مع غيرها من الأنشطة التجارية والاقتصادية التي كانت تنهض بها أسواق مكة الثلاث. إذن يمكننا القول – مطمئنين مع آخرين من الباحثين – إن أسواق مكة الثلاث قد أتاحت فرصة لصراع اللغات – اللهجات – العربية وكذا الشرقية.

وكانت هذه الأسواق في مظهرها الأدبي الذي سوف يأتي بسطه حلبة هذا الصراع الثقافي استطاعت فيها لغة معينة أن تحتوي باقي اللغات، وتصرع بعضها الآخر، حينما لم تصمد هذه اللغات الأخرى لقوة هذه اللغة وقدرتها الفائقة على ابتلاع غيرها وهضمها وإعادة تمثلها وتوحيدها في صورة واحدة ذات سلطان وسيادة مهيمنة وأعني بهذه اللغة لغة قريش سكان مكة وساداتها، الذين كان لهم بأسواقها كلمة ورأي مسموعان.

لقد هيأت تلكم الأسواق الثلاث التي لا تفتأ إحداها أن تقوم تلو الأخرى وتعقد على تخوم مكة، هيأت للهجة قريش دون غيرها من لهجات العرب أن تسود ويعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة [1] (وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم

(١) العصر الجاهلي، ت. شوقي ضيف، ص ١٣٣، ١٣٤.

الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم وقد تدل على ذلك بعض الدلالة سوقها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ولم يُرو ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً ، وما ردوه فيها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمي فأنشدهم قصيدته : " هل ما علمت وما استودعت مكتوم " فقالوا : " هذا سمط الدهر " ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته " طحا بك قلب في الحسان طروب " فقالوا : " هاتان سمط الدهر " وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذ قلنا أن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران) .

لقد حدث ما يمكن تسميته بالوحدة اللغوية قبيل الإسلام ولم تكن تلك الوحدة لتتحقق إلا بعد صراع طويل [١] (بدأ منذ ما قبل الميلاد واستمر نحواً من خمسة قرون، قضت الحجازية على اليمنية قبل لهجاتها ، وتحققت الوحدة اللغوية حينئذ بين العرب في الجزيرة) .

---

(١) سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . عرفان حمور، ص ١٦٩ .

ويضيف أحدهم ملقياً الضوء على نهاية هذا الصراع بقوله [١] : (وما هو إلا أن نزل القرآن بها ، حتى بدأت معركتها الأخيرة ضد الآرامية ، فصرعتها ، وصارت لها السيادة المطلقة في جميع أنحاء جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق ، ولم ينج من سيطرتها سوى مناطق قليلة معزولة ، ظلت على الآرامية أو العبرية) .

وربما كان لعكاظ أكبر الأدوار فيما يمكن أن يسمى بمراحل التهذيب اللغوي قبل توحيدها على لغة قريش ، إذ كانت قريش [٢] (تبالغ في انتقاء اللهجات ، وانتقاء الأفصح من مفرداتها) ، وهذا التهذيب لم يكن وليد يوم أو عام بل كان نتاجاً طبيعياً لجهد جماعي استمر سنوات حتى استطاعت لغة قريش الفصيحة أن تكون سيدة لهجات العرب وتجعل الأدباء في شتى أنحاء الجزيرة يتجهون بلغة شعرهم إلى مكة التي أصبحت كعبة الحجاج والشعراء معاً .

على هذه الحال مضت لغة قريش هي اللغة الفصحى المعتمدة والتي يحوز بها شعراء العرب عموماً مكانهم ومكانتهم بين الشعراء ، ولغرض ما ذهب بعض المستشرقين في طلب الفصحى العربية في غير لهجة قريش ، فذهبوا يبحثون عنها في لهجات أخرى في قبائل نجد ، وقد رد عليهم د . شوقي ضيف بأن زعمهم ذاك لا يقوم لأنهم كانوا (متناسين أن شيوع لهجة بعينها لابد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيىء لها هذا الشيوع والانتشار) [٣] .

---

(١) سوق عكاظ ومواسم الحج ، حمور ، ص ١٦٩ .

(٢) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، جـ١ ، ص ٨٧ ، ٩٥ ، طبعة مصر .

(٣) العصر الجاهلي ، ت . د . شوقي ضيف ، ص ١٢٣ .

وهنا ينبغي أن ندرك أنه ثمة إرادة إلهية شاءت هذا الدور من التحول أو قل تَجَمُّع لهجات شتى وانصهارها تحت لواء لهجة واحدة هي لهجة قريش بوصفها أفصح اللهجات حتى ينزل القرآن الكريم بها، بعدما شاعت وأصبحت اللهجة الرسمية التي تكتب بها أروع النصوص الأدبية وأخلدها، ولعل طه حسين لم يخطيء حينما أكد أن شعرنا الجاهلي إنما نستدل على صحته اللغوية من القرآن الكريم ذاته وليس العكس [(١)] ، لسوف يأتي أن اتفاقاً ما لغوياً وبنائياً انتهى إليه الشعراء قبيل الإسلام فجمعهم أسلوب صناعة شعرية واحد يشف عن وحدة اللغة والتصور الفني للأشياء.

والحق أن توحيد اللغة على النحو الذي بيّناه لم يكن الفضل يرجع فيه لقريش خاصة إذ كانت هناك قبائل عُرفت أكثر من قريش بالفصاحة وخرج من بطونها الشعراء والخطباء، ولعل قبيلتي إياد وتميم أكبر مثل – إلى جانب أسد وهذيل وقيس – على تفوق قبائل كثيرة في صناعة الشعر الفصيح، فالفضل إذن يرجع في الأساس إلى المكان والزمان اللذين جمعا كل الشعراء من شتى القبائل والبطون فوحدوا لغتهم وأعني الأسواق خاصة عكاظ التي كانت بمثابة مجمع اللغة العربية عمل على فرز ما بها من عيوب وانتقى واصطفى الأسلم والأفصح، فاستبعدت اللغة حينئذ كثيراً من العيوب التي تلحق بعض اللهجات وهي عيوب ترجع في الأساس إلى خصوصية في نطق بعض الحروف لدى لهجات معينة عرف بها أصحابها منها [(٢)] عنعنة تميم،

---

(١) في الأدب الجاهلي لطه حسين، راجع المقدمة، دار المعارف، الطبعة العاشرة: ١٩٦٩ م.

(٢) البيان والتبيين، جـ١، ص ١٢٧–١٢٨ لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المكتبة التجارية، القاهرة (١٩٣٢م)، تحقيق حسن السندوبي.

=

وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وتلتلة بهراء، وعجرفية ضبة، وعمعمة أو عجعجة قضاعة، وطمطمانية حمير، ولخلخانية عمان والشحر.

والذي يبدو لقارئ أشعار العربية خاصة المعلقات في خلوها من مثل هذه المعايب في النطق يتأكد له أن أسواق عكاظ ومجنة وذا المجاز حينما كان الشعر ينشد في إحداها كان بريئاً من مثل هذه العيوب، ولو أن شاعراً غدا ينشد في عكاظ أو في غيرها شعراً تضمن كشكشة أو عنعنة .... إلخ لأصبح أضحوكة لسامعيه وأصبح شعره نكتة يتفكه بها أهل السوق [1].

خلاصة القول إذن أن اللغة العربية قد بلغت في الجاهلية وقبل نزول القرآن الكريم حداً من الاستواء وبلغت درجة من التمام والكمال فأضحت لغة مثالية في المجتمعات الأدبية بعكاظ ومجنة

=

العنعنة : إبدال همزة أول الكلام عيناً فيقولون عن بدلاً من أن، الكشكشة هي : قلب كاف خطاب المؤنث الأخير شيناً مثل كتابش بدلاً من كتابك، الكسكسة هي : قلب كاف الخطاب في المذكر سيناً فيقولون كتابسِ بدلاً من كتابَك، التضجع هو الإمالة والخفض، التلتلة هي : كسر أوائل الحروف، كقولهم : تِعملون وتِعقلون وتِصنعون . العجرفية : التقعر في الكلام . الغمغمة : هي عدم إظهار بعض حروف الكلمات أثناء الكلام . العجعجة : يجعلون الياء جيماً مع العين كقولهم : راعج في راعي، ومعج في معي . اللخلخانية : كقولهم مشا الله بدلاً من ما شاء الله . الطمطمانية : كقولهم طاب امهواء بدلاً من طاب الهواء، يجعلون الميم بدل أل التعريف . ومنه " وفدهم على رسول الله وقد سألوه : هل من امبر امصيام في أمسفر ؟ أرادوا هل من البر الصيام في السفر .

(١) راجع : دراسات في فقه اللغة، ص ٩٦، د . صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة (١٩٨١م) بيروت .

وذي المجاز قامت هذه اللغة في الأساس على خير اللهجات العربية بما فيها لهجة قريش وغيرها من القبائل الفصيحة كإياد وتميم، وبهذه اللغة الناضجة القوية جرت الأشعار ودُبجت الخطب، ولم تمتلك هذه اللغة قوتها وصفاءها إلا بعد ما نفضت عن نفسها العيوب النطقية في بعض اللهجات (فبدت في أحسن حلة، فيما وصل إلينا من أدب عصر الجاهلية، وظهرت في أبلغ صورة حينما نزل القرآن الكريم بها، في بلاغته المعجزة وتحديه العرب أن يأتوا بمثله، على ما لهم من بلاغة وفصاحة، ونظر ثاقب في دقة التعبير، وخفايا القول وأسراره)[1]، وهذا ما يدفعنا للوقوف على البعد الثاني من أبعاد الدور الثقافي الذي مثلته أسواق مكة، وأعني الدور الأدبي الذي كان جزءاً من النهضة الثقافية والعلمية التي أدت فيه مكة دورها الحضاري .

٢- في جانب الأدب :

إننا لا نغالي إذا قلنا إن نهضة الشعر العربي - في الجاهلية خاصة -، مدينة إلى أسواق العرب التي كانت تعقد فيها مجامع الشعر وتنصب قبابه، ولا شك أن الأسواق الأدبية كانت تمثل الإجازة التي يمنحها النقاد والسامعون والرواة للشعراء الذين يقصدون هذه الأسواق لعرض أشعارهم، فإذا أضفنا إلى هذا ما قلناه سابقاً من أن هذه الأسواق كانت بمثابة المجامع اللغوية التي وحدت لهجات اللغة العربية في لغة رسمية صافية، أمكننا إذن القول ثانية بتوكيد دور هذه الأسواق وأخص منها عكاظ لسببين : لشهرته كمهرجان أدبي

---

(١) سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . عرفان محمد حمور، ص ١٩٠ .

من ناحية ، ولطول مدته الزمنية التي تبلغ العشرين يوماً على عكس السوقين اللتين تتليانه ، أجل لقد كان لعكاظ وغيره السبب الأقوى في نهضة الشعر الجاهلي والعربي بعامة وكان الشعراء أنفسهم يعرفون خطر هذه الأسواق، كذلك كانت أحياء العرب تعرف لها خطورتها ، لذلك حرص الشعراء أن يعرضوا أشعارهم التي عكفوا عليها حولاً كاملاً أو بعضه، على السامعين بعكاظ مثلا . ولعل أظهر الشواهد هي قصيدة عمرو بن كلثوم التغلبي المعلقة المشهورة التي عدها الرواة والنقاد فخر العرب لعصبيتهم لأنها تلتهب حماسة وإعظاماً لنفس العربي الأبي .

لقد حرص صاحبها أن ينشدها في عكاظ حتى تسير شهرتها بين أحياء العرب ويتحدثون بها ركبانا ورجالا وهذه القصيدة التي مطلعها [١] :

ألا هُبي بصحنك فاصبحينا ولا تُبقي خمورَ الأندرينا

وقد حقق صاحبها ما يصبو إليه من فخار لقوميته بقدرته على الفتك بالملك عمرو بن هند اللخمي نحو سنة (٥٦٩م)، وقد طارت شهرتها في الآفاق بين أحياء العرب وكتب لها الخلود الأدبي وذلك يرجع لأنها قد قيلت في محفل عكاظ الذي ختم عليها بخاتمه فذاع صيتها عبر الزمن .

وإذا أراد شاعر من الشعراء أن يهدد آخر لوّح له بالقول أن

(١) راجع : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها (معلقة عمرو بن كلثوم) الشنقيطي، دار الأندلس، بيروت، د . ت .

سيُدبج فيه قصيدة تدب في عكاظ وتزلزل مسامع أحياء العرب، والخطورة هنا لا ترجع إلى ما في القصيدة بقدر ما ترجع إلى المحفل العكاظي ذاته . وأشهر حادثة في ذلك الموضوع ما جرى بين أمية بن خلف الخزاعي وبين حسان بن ثابت، إذ هدد الأول صاحبه بأن يكتب فيه قصيدة هجائية لها دويها إذا قيلت في عكاظ يقول أمية [١] :

ألا ، من مُبلغ حُسان عني مُغَلْغَلَةً تَدبُّ إلى عكاظ

ويرد عليه حسان بن ثابت مهدداً بنفس السلاح الماضي بين الشعراء، وهو سلاح عكاظ، يقول حسان [٢] من الوافر :

أتاني عن أميــة زُورُ قــــوْلٍ وما هو في المغيب بذي حفاظ
سأنشر ما حييت لكم كلاما ينشر بالمجامـع من عكاظ

وما أخذت المعلقات شهرتها إلا بعد إجازة السامعين لها بالأسواق فما جرى على قصيدة عمرو بن كلثوم يجري على قصيدة الحارث بن حلزة وامرئ القيس [٣] (وسائر المعلقات الطوال، فما كان الإجماع لينعقد على فوزها بالسبق، والتفوق، لولا أنها صيغت بلغة أدبية مثالية يفهمها العرب جميعاً بمختلف لهجاتهم، وليس فئة مخصوصة منهم) .

كما أنني أعتقد أن بنات أحد رجال العرب المعوزين في

(١) راجع القصة في أمالي ابن الشجري، جـ١، ص١٢٦، طبعة حيدر آباد، ١٣٤٩هـ .

(٢) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، جـ١، ص ١٥٣، شرحه وعلق عليه دكتور وليد عرفات، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤ .

(٣) سوق عكاظ ومواسم الحج، ت . حمور، ص ١٨٠ .

الجاهلية مدينات إلى الشاعر الأعشى الذي وفر لهن جميعاً الأزواج من أشراف العرب وأثريائهم، وكان هذا نتيجة لإحدى قصائده في مدح أبيهن المحلق، وهذه القصيدة لولا قولها في عكاظ خاصة ما سمع الناس عن المحلق وبناته، فعندما انتشرت بين الناس تسابقوا للفوز بهؤلاء البنات زوجات لهم . وقصيدة الأعشى التي ألقاها بالسوق وكان لها هذا الأثر الاجتماعي الخطير فهي قوله [١] : (من الطويل)

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي تعشق

وكما كان لعكاظ أثر بالغ في صيرورة أشعار أمية بن خلف وحسان، كان لها أيضاً أثر في تخليد كثير من منافرات العرب ومنافستهم الشعرية ويزخر كتاب أبي الفرج الأصفهاني [٢] بألوان شتى من هذه المنافسات الشعرية. ولم تكن مثل هذه المنافسات الشعرية مقصورة على الرجال دون النساء، بل شهدت عكاظ أيضاً تنافساً نسوياً بين كل من الخنساء وهند بنت عتبة فكلتاهما قالت شعراً حزيناً باكياً انطلقت شهرته من عكاظ، فالخنساء ترثي أخويها وهند ترثي عتبة أباها وعمها شيبة وأباهما ربيعة.

أما أبو ذؤيب الهذلي فتكشف لنا بعض أبياته عن خطورة من الناحية الأدبية حينما يقول [٣] من الوافر :

إذا بُني القبابُ على عُكاظٍ وقام البيعُ واجتمع الألوفُ

(١) ديوان الأعشى، ص ٢٦٧، تحقيق محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤ .

(٢) راجع : الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، جـ١٠، ص ١٣١ وما بعدها، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧ م .

(٣) ديوان الهذليين، القسم الأول، شعر أبي ذؤيب، ص ١٠٠، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥ .

تُواعدُنا عكاظ لنتزلنـــهُ   ولم تَعلم إذا أنّي حليفُ

ولم يكن حظ الخطابة في عكاظ بأقل من حظ الشعر، بل على العكس كانت العرب تحب الخطابة أكثر من الشعر وتلتف حول الخطيب في الأسواق والمواسم، لأنه كان يقدم حكمته ونصيحته المؤثرة في نفس العربي بجرسها الموسيقي وإيجازها البلاغي، وربما كان قس بن ساعدة الأيادي والأكثم بن صيفي من أعظم خطباء العرب قاطبة أفرد الجاحظ لهما أبواباً في كتابه البيان والتبيين، ومن المعلوم تاريخياً أن أشهر هذه الخطب هي خطبة قس بن ساعدة بعكاظ في أحد مواسم الحج قبل البعثة ولم يكن الرسول ﷺ سوى غلام حديث السن غير أنه شهدها وسمعها ولا زالت بخلده تؤثر فيه معانيها القوية وحكمتها البليغة حتى بعد الإسلام، يقول قس بن ساعدة الشيخ الوقور وهو راكب على جمل أورق متكيء على قوسه مرتجلاً [١] :

(أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدجاة، وأنهار مجراة . إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم تُركوا فناموا ؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكراً ...) . وبعدما انتشر الإسلام

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، ص ٣٠٩ مطبعة الخانجي، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

وطبق آفاق الجزيرة وبلغ الرسول ﷺ أربعين عاماً تذكر حينما جاءه وفد من إياد قسا ، فسأل عمن يحفظ خطبته تلك التي لا يزال الرسول يذكرها ويذكر مشهدها بعكاظ فعندما يجيبه أحدهم بها يعجب بها ويدعو قس أن يبعثه الله يوم القيامة أمة .

كانت الأسواق إذن ذات أهمية أدبية بالغة فيما كان يقال فيها من شعر وخطب، حتى أنها كانت بمثابة المهرجانات الأدبية التي تنطلق منها التجارب الأدبية العظيمة التي يُكتب لها الذيوع والخلود حتى الآن كالمعلقات والخطب، وكان أولئك الشعراء والخطباء يحصلون في هذه الأسواق على شهادة ميلادهم الأدبية ويحوزون إجازتهم من النقاد والرواة ليصبحوا أدباء معتمدين بين القبائل والأحياء العربية .

نقطة أخرى أتاحتها هذه الأسواق فيما كان يقال فيها من شعر خاصة، وهي نقطة غاية في الأهمية الأدبية واللغوية معاً، فلقد لاحظ أحد الباحثين (1) أنه ثمة إرادة إلهية جعلت أساليب الصناعة في الشعر قبيل نزول القرآن تتفق في ملامح مخصوصة لغوية وتصويرية، وتظهر هذه الأساليب في شعر الخمر والأسفار على وجه الخصوص، إذ اتفق الشعراء في أساليبهم الصناعية فتشابهوا في وصف الخمر وفى وصف الناقة وفى وصف أسفارهم عبر الصحراء، وقد علل ذلك تعليلاً جيداً إذ أن ذلك كان يعد مظهراً من مظاهر الكمال اللغوي والوحدة

(1) راجع : أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين، د . محمد محمد حسين، الخاتمة، دار النهضة، ط٢، بيروت، ١٩٧٢ .

الفنية التي مهدت للغة القرآن بعد ذلك، وأضيف من عندي عاملاً آخر يتصل بالأسواق ذاتها، إذ أن جل هذه الأشعار الجاهلية كانت تعرض بأسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز فأضفت هذه الأسواق بنقادها المعروفين لوناً من الوحدة عليها فتشابهت الأساليب على لغة واحدة وانتظم الشعراء في أساليب فنية نمطية استمدت نمطيتها من ذلك النظام الذي فرضته الأسواق الأدبية بذوقها اللغوي والفني الخاص. ويتصل بالنشاط الأدبي لعكاظ نشاط موازٍ، جعل من عكاظ وغيرها من الأسواق معرضاً فيه زخَمْ وفاعلية وأعني به نشاط النقد الأدبي الذي كان يُمارس ويستعد له الشعراء استعداداً خاصاً فكانت الأسواق وكما يقول أحدهم [١] معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية، يلقى فيها الشعر والخطب، وينقد ذلك كله ويهذب. وقصة النابغة الذبياني الذي كان يشهد عكاظ وتضرب له فيها قبة حمراء ويأخذ مجلسه في الحكومة بين الشعراء أشهر من أن نعيدها غير أننا نكتفي هنا فحسب بالإشارة إلى أن الأحكام النقدية التي أُثرت عنه وعن غيره في هذه الأسواق أصبحت من تراثنا النقدي الذي لا زلنا نتعلمه ونعلمه أبناءنا، إننا في حاجة إلى أن نتفحص كيف انتقد النابغة على سبيل المثال بيتاً واحداً لحسان وأوقفه فيها على أربعة أخطاء لغوية وفنية. وبذا تكون أسواق مكة قد مثلت في نشاطها النقدي دوراً قلما يتكرر إنها [٢] (مجمع أدبي لغوي رسمي له محكمون تضرب عليهم القباب فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم

(١) عكاظ والمربد، ٢٣/١٣، مجلة الرسالة، ١٩٣٣م. د. أحمد أمين.

(٢) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٢٤٣، ت. سعيد الأفغاني.

شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيد، وما بهرجوه فهو الزائف)، وإلى جانب ذلك كان النقاد يمنحون الشعراء ألقاباً جديدة، مستعارة من صفة أشعارهم كالمرقش والمهلهل. ولعلنا نذكر ما قلناه عن الجوائز التي كانت تُرصد للشعراء المجيدين من قِبل بعض الأمراء في مهرجان الاحتفالات الأدبية بالأسواق، ولعل إحدى هذه الجوائز أن بعضهم كانت قصيدته تفوز فتكتب بماء الذهب وتعلق بأستار الكعبة بمكة.

٣ - في الجانب الاجتماعي:

إن الأسواق العامة التى كانت حول مكة المكرمة لم تكن فحسب أسواقاً أدبية وتجارية – كما سيظهر – بل كانت ذا أنشطة اجتماعية كثيرة ومتعددة. نظراً لأنها أسواق موسمية كان يؤمها الناس من كل مكان يلتمس فيها شتى أنواع الحاجات [١] (كان قاصد هذه الأسواق أيام الحج، موزع السمع بين داعي إلى ثأر وناشد ضالة ومنشد قصيدة، وخطيب، وعارض بضاعة، وآمر بمنكر...، فيجد شيئاً معروفاً قد ألفه منذ عقل وأبصر الدنيا).

فكانت هذه الأسواق إذن تعكس شتى مظاهر الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة العربية بشتى قبائلها، وبطونها، تعكس عاداتهم وتقاليدهم وشتى العلاقات الإنسانية الرابطة بين أفراد عشائرهم. ومن الطريف أن التاريخ يذكر لنا أن كبراء القوم

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٣٠٣، الأفغاني.

وأشـــرافهم إذا نزلـوا بإحـدى هـذه الأسـواق لبـسوا أقنعـة علـى وجـوههم حتـى لا يُعرفـوا . فطريـف العنـبري أحـد أشـراف العـرب وشـجعانهم فـضّل ألا يتقنـع إذا نـزل عكـاظ كعـادة شـرفاء العـرب حتـى رآه رجـل، لـه عنـده ثـأر، فنظـر إليـه وتوسمـه جيـداً، وعنـدما فطـن طريـف لـه قـال [١] مـن الكامل :

أو كُلّما وردتْ عُكاظ قبيلةٌ بعثوا إليّ رسُولـهُمْ يتوسّمُ

فكـان يقـصدها طـلاب الثـأر، وحـاملو الـديّات، والمـصلحون بـين المتخاصمين، وكانت هذه الأسواق تعج بمن يُسبى من الفتيان والنساء لبيعهم أو لشرائهم، ولقد اشترت خديجة بنت خويلد عبداً لها كان قد أُسـر في إحدى الغارات الجاهلية وهـو زيـد بـن حارثـة، اشتراه لها ابن خالتها حكيم بن حزام [٢] .

ويزخـر الـشعر العربـي القـديم بمـدائح لكـثير مـن كـبراء العـرب وأشـرافهم الـذين تحملـوا ديّـات بعـض القتلـى، وسـعيهم بـذلك للقـضاء علـى كـثير مـن الخـصومات أو الثـأر الـذي ينـشب في الجاهليـة بـين القبائل .

كـذلك كانـت هـذه الأسـواق هـي الملجـأ الـذي يلـوذ بـه طالـب الأمـن أو الجـوار حتـى ينجـو بنفسه مـن فتـك بعضهم لـه، علمـاً منـه أن مَنْ يطلـب الأمـن في مثـل هـذه المحافـل العامـة الـتي يحتـشد فيهـا النـاس مـن

(١) الأصمعيات، ص ١٦٧، عبد الملك الأصمعي، دار المعارف، القاهرة، د. ت .

(٢) المعارف، ابن قتيبة، ص ١٤٤، حققه وقدمه الدكتور ثروت عكاشة، الطبعة السادسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

كل مكان يضمن سلامته لما تضفيه هذه الأسواق من مشروعية ولما تحظى به من ثقة القبائل، فالعهود التي تُكتب فيها والمواثيق التي يتفق عليها بهذه المحافل تكتسب مصداقية وحرمة كحرمة البيت الحرام الذي يقصده الحجيج مُحرمين عبر أسواقهم [١] ، (فكم أوى إليها من خائف يطلب من يجيره فيجده ويلجأ إليه ويأمن وكم من رجل حمل معه فداء أسيره ففكه من أسره) .

وكان من يحترم عهوده التي وقّع عليها في هذه الأسواق ويفي بها ، رفعت له بهذه الأسواق راية الوفاء ليشتهر خلقه بين الناس وتكون هذه الراية بمثابة إعلان رسمي أو شهادة حسن سير وسلوك، على عكس من يغدر أو يخون رُفعت له راية الغدر [٢] والخيانة ليعرف أمره وتُفتضح خلائقه بين القبائل المحتشدة فيتجنبه الناس ولا يعاهدونه ، وكانت هذه سبيلاً في إصلاح الكثيرين الذين خافوا على أنفسهم أن يصمهم العار بهذه الأسواق فاعتدلوا في سلوكهم ووفوا بعهودهم .

ولعل من ضمن ما أسهمت به هذه الأسواق في النهوض بالمجتمع المكي، هي أنها كانت تشهد احتكاكاً سنوياً بين العادات والتقاليد المختلفة في شبه الجزيرة العربية من بدوية جافية غليظة ، وحضرية سهلة ناعمة ، فكانت تقلل ما أمكنها ذلك من غلواء الأولى، الأمر الذي انعكس على المجتمع المكي الذي لم

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ١٧٥-١٧٦ ، ت . سعيد الأفغاني .

(٢) أسواق العرب، الأفغاني، ص ٢٨٤ .

يكن بدوياً محضاً ولا حضارياً خالصاً، بل كان مجتمعاً تتصهر في بوتقته شتى العادات والتقاليد كما انصهرت فيه من قبل شتى اللهجات العربية، وقد دعم ذلك كونها أي مكة مركزاً تجارياً كبيراً وملتقى قوافل من العرب والعجم .

ب –أهميتها في الجانبين السياسي والتجاري

وكما كانت لهذه الأسواق أهميتها الثقافية التي مثلنا أبعادها بأهميتها اللغوية والأدبية والنقدية والاجتماعية، كانت لها أيضاً أهميتها السياسية والتجارية، ففي ضوء ما عرضناه أمكننا القول بأن الأسواق العامة حول مكة كانت محكمة عرفية، فمن كان يريد أن يدفع إتاوة ما عليه، أو يريد تخليد ذكر قومه أو التفاخر بانتصاره الحربي أو السياسي كما فعل عمرو بن كلثوم جاء هذه الأسواق وأعلن بها ما يريد أن يذيعه بين العرب، وأكثر من ذلك فلقد كانت هذه الأسواق وخاصة عكاظ أشبه بندوة سياسية سنوية، وكانت منبراً إعلامياً لمن أراد أن يعلن حرباً على قبيلة من القبائل، ويشبهها أحدهم بجمعية الأمم المتحدة إذ يقول [١] :(حتى جمعية الأمم وما تقوم به من مجهود رسمي في سبيل السلم الخاص، كان لها صورة مصغرة تشبهها بحسب الظاهر) .

كل هذا جعل من مكة ذاتها العاصمة القومية [٢] للعرب

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٢٤٥ .

(٢) سوق عكاظ ومواسم الحج، ص ١٦٩ .

جميعاً، وسوق عكاظ المجمع العام لقبائلهم، والمعرض الكبير لمتاجرهم، وبصيغة أخرى فقد كان لوضعها التجاري الذي يشبه الآن في خطورته واستراتيجيته قناة السويس بمصر أثر بعيد دفع أحد الكتّاب الأوربيين وهو لامنس أن يشبهها حينئذ بأنها – أي مكة – بأسواقها كانت أشبه بجمهورية كجمهورية البندقية التجارية [١].

وقد مرت علينا أبيات لأبي ذؤيب الهذلي تؤكد أن بعض هذه الأسواق قبل الإسلام كسوق مجنة مشهورة بألوان معينة من البضائع كالخمر، وكانت عكاظ تجلب إليها البرود اليمنية والسيوف الهندية والعطور الفارسية، وكذا كانت ذو المجاز. ولزيادة الفائدة قد جمعت في آخر البحث ملحقاً لبعض الشواهد الشعرية للشعراء الجاهليين والمخضرمين الذين ذكروا في أشعارهم تلكم الأسواق الثلاث، وفي هذه الشواهد دليل على منزلة هذه الأسواق من الناحية السياسية والاجتماعية وغيرها من النواحي الإنسانية لتكون وثائق لمن أراد أن يطلع على ذكر هذه الأسواق في شعرنا القديم.

جـ - في الجانب الفكري

وكما كان لهذه الأسواق من أهمية لا تنكر في توحيد اللغة وتقريب بعض العادات، كان لها أيضاً أهمية في تقريب الأفكار وتوحيد الرؤية. وسرعان ما جاء الدين الإسلامي فسهل تلك النظرة التوحيدية أو قل التوفيقية، وهذا ما عناه بروكلمان حينما قال:

---

(١) نقلاً عن العصر الجاهلي، ص ٥٠، ٥١، ت. شوقي ضيف.

(وإلى هذه الأسواق وبالتالي إلى الدين بشكل غير مباشر، يعود معظم الفضل في توحيد نظرة العرب الجاهليين إلى العالم، وصهر عاداتهم، ومفاهيم الشرف عندهم في بوتقة واحدة ، ومنحهم لغة شعرية مركزة، تسمو على جميع اللهجات، وتستغرقها) [١] حتى إذا ما بزغ نجم الدين الجديد تم به توحيد نظرة العرب إلى الوجود من حولهم بعدما وجهها الإسلام وجهته .

ومن المعلوم لدى المشتغلين بسيرة النبي ﷺ أن عكاظاً وذا المجاز كانتا سوقين يغشاهما محمد بن عبد الله قبل بعثته في مواسم الحج شأنهما في ذلك شأن غيرهما من أسواق مكة حيث كان ﷺ يتردد عليها جميعاً، وبعد بعثته بثلاث سنوات أخذ يجهر بدعوته واختار عكاظاً لأنها أكبر هذه الأسواق فبدأ فيها دعوته وظل يهتف في الجموع الحاشدة قائلاً : " أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا " [٢] وكان عمه أبا لهب يمشي وراءه في السوق يكذبه، ولما اشتد إيذاء قريش له كان يأتي في الأسواق القبائل فيستجير بهم كي يمنعوه من قومه حتى يؤدى رسالته .

ولا شك أن كثيراً من القبائل وزوار هذه الأسواق الثلاث في موسم الحج خاصة كانوا قد سمعوا بهذه الدعوة الجديدة لأول مرة في الأسواق، ولا شك أنهم قد عادوا إلى أحيائهم وبلدانهم يحدثون

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٦، ت. كارل بروكلمان، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين (١٩٧٩ م) بيروت .

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، جـ١، ص٢٠٠ وما بعدها، ت. محمد فهمي السرجاني، مكتبة التوفيقية، مصر .

قومهم بهذا الداعي الجديد وذلك الدين البازغ من مكة، فهذه الأسواق إذن كانت البيئة الأولى بعد دار الأرقم بن أبي الأرقم التي أذاعت خبر دين الإسلام ونقلته عبر مناطق شبه الجزيرة المختلفة .

ويطول بنا المقام إذا تتبعنا الأدوار الثقافية والفكرية التي أدتها أسواق مكة وجعلتها ذات دور آخر حضاري أسهم في أن تأخذ مكة منذ وقت باكر طابعاً عالمياً وليس محلياً على شتى المستويات خاصة المستوى العلمي بعد انتشار الإسلام، فأصبحت (ملتقى للمسلمين من مختلف أقطارهم، وهي بحكم دينهم الحنيف لابد لهم أن يتوجهوا إليها ويرتبطوا بها، ولهذا فقد أصبحت مكة منذ جاء الإسلام مركزاً للثقافة الإسلامية، يجتمع فيها العلماء الذين يفدون من أقصى الشرق والغرب، ويتحصل من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وتبادل رأي واستزادة علم وامتداد لروافد المعرفة وانتشار للأفكار بين مختلف الفئات الإسلامية)[(١)] .

ولقد مر بنا أن بعض الكُتّاب قد وصفوا الأسواق المكية بأنها تشبه ندوة سياسية، أو جمعية للأمم، أو مجمعاً للغة العربية، أو معرضاً ضخماً للتجارة الدولية، أو مهرجاناً أدبياً حافلاً، مر بنا ذلك كله غير أننا نحب أن نختم بتشبيه آخر وُصفت به الأسواق خاصة عكاظ، يؤكد ما كان لها من منزلة بين شتى الأسواق العربية، وما ميّز طابعها الرسمي غير المحلي بقول أحدهم[(٢)] : (فسوق عكاظ، في

---

(١) نقلاً عن كتاب الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، ت. طرفة عبد العزيز العبيكان، الرياض، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية .

(٢) تاريخ العرب، ص ١٢٧، د. فيليب حتى، وإدوارد جرجي وجبرائيل جبور، دار غندور، ١٩٨٦م، بيروت.

جاهلية التاريخ العربي، كانت أشبه شئ بأكاديمية كبرى في بلاد الغرب . وكان الفائز في عكاظ يباهي بنفسه مباهاة البطل المجلّى من أبطال الإغريق في ألعابهم الأوليمبية، بل ليس بين نائلي جائزة نوبل اليوم من يزيد فخره على فخر أولئك الفائزين في عكاظ الجاهلية) .

وبعدما ظهر الإسلام وعم نوره أرجاء الجزيرة العربية والعالم كله، تهيأت مكة بفضل تاريخها الذي يقوم على دعامتين : بيت الله الحرام من جهة، والأسواق داخلها وخارجها من جهة أخرى، تهيأت لتواصل دورها الثقافي والعلمي والحضاري، فجاءها الناس من كل فج في العالم طلباً للدين الجديد ينهلون من نبعه الأصيل فأصبحت مكة جامعة يؤمها العلماء فينزلونها وتحلو لهم الإقامة فيها دون غيرها [(١)] ، ويضحون من المجاورين يكرسون حياتهم للتأليف ونشر العربية وعلوم الدين لمن ينزلها من غير العرب . وكما كانت مكة منذ جاهليتها حاشدة بالأسواق والمنتديات كدار الندوة التي كانت أيضاً منتدى للقبيلة [(٢)] يتشاورون فيها ويصدرون قراراتهم المصيرية، أضحت بعد ذلك وعبر العصور مركزاً للعلم، وكعبة للعلماء وصدراً يحتضن شتى المنظمات والمؤسسات والأربطة المهتمة بكل ما يتعلق بأمور المسلمين، وبذا فهي عاصمة للثقافة العربية والإسلامية . ولولا أن الله قد أراد لها أن تكون تحت سلطان دولة قوية وحكومة رشيدة، ما حملت هذا الطابع الثقافي والحضاري، ولما

---

(١) عصر الدول والإمارات " الجزيرة العربية – العراق – إيران "، ص ٥٣، د . شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ٥، دار المعارف، الطبعة الثالثة (د.ت) .

(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، ص ١٢٢، د . أحمد إبراهيم الشريف، دار الفكر العربي (د.ت) .

تهيأ لها أن تقود الثقافة الإسلامية وعلوم العربية، خاصة وأن أحداً من ملوكها وأمرائها لم يدخر وسعاً في تعهدها، ورعاية أهلها وحجيجها، والحفاظ على مكانتها التي اختارها الله لها بأن تكون أم القرى بحق. وكان أقصى غايتهم من وراء ذلك أن يكونوا خدَّام حرمها وحرم المدينة المنورة .



الخاتمة :

وبعد ...

فلقد حاولت في هذه الورقة أن أربط بين بعض الأسواق التي كانت تُعقد حول مكة وبين مكة ذاتها بوصفها مقصد الحجاج إلى بيت الله الحرام انطلاقاً من حقيقة تاريخية معلومة وهي أن تلكم الأسواق – وإن كانت خارج مكة – فإنها كانت ترتبط بها ارتباطاً تاريخياً ودينياً في آن، إذ كان وجودها زماناً ومكاناً مرتبطاً بموسم الحج في الجاهلية إلى البيت الحرام، ومن ثم كان لجملة هذه الأسواق أكبر الأثر في دعم الدور الثقافي والحضاري الذي حملته أم القرى عبر العصور .

واعتماداً على ما توفر لي من مراجع حول تاريخ هذه الأسواق فقد أمكنني حصر أهميتها بالنسبة لمكة المكرمة في الآتي :

١– أهمية ثقافية :

تمثلت فيما أدته هذه الأسواق من دور بالغ الأثر في تصفية

اللغة العربية وتوحيد لهجاتها في لغة فصيحة ناضجة ومستوية بفضل ما كانت تضمه هذه الأسواق من نشاط أدبي ونقدي يحظى باحترام شتى القبائل مما أضفى عليها لوناً من المشروعية والمصداقية لدى سكان الجزيرة، الأمر الذي انعكس على مكة ذاتها فأصبح لها في نفوس حجيجها مكانة ثقافية بالإضافة إلى مكانتها الدينية .

٢- أهمية سياسية وتجارية :

حيث كانت الأسواق العامة حول مكة كعكاظ أشبه بالمحافل السياسية التي كانت تُطرح فيها الآراء وتُعلن الحروب، كما كانت معرضاً تجارياً حافلاً ضمت صنوفاً شتى من البضائع المحلية والأجنبية، الأمر الذي ألقى بظلاله أيضاً على مكة بوصفها المركز أو قُل السبب لوجود هذه الأسواق .

٣- أهمية فكرية :

حيث عملت هذه الأسواق وغيرها من الأسواق الداخلية في مكة ذاتها على وحدة اللغة والصناعة الأدبية ومن ثم وحدة النظر إلى الوجود خاصة بعد مجيء دين الإسلام .

لقد كان لهذه الأبعاد الثلاثة أثر في تمكين الدور الثقافي الذي قدره الله لمكة إذ جعلها أم القرى ومركز للثقافة الأم، فتهيأت بعد ظهور الإسلام لتواصل عطاءها الدعوي والثقافي تأسيساً على إرادة الله باختيارها أم قرى العالم ثم اعتماداً على ما أضافته لها الأسواق من أبعاد ثقافية وسياسية واقتصادية وفكرية . وبذا كانت مكة المكرمة هي عاصمة للثقافة الإسلامية في العالم .

ملحق لزيادة الفائدة يضم :

الأبيات التي أوردت ذكر إحدى الأسواق الثلاث

لشعراء ما قبل الإسلام والمخضرمين *

قبل الإسلام

❖ عكاظ :

النابغة الذبياني

١- أَرَأَيتَ يَومَ عُكاظَ حينَ لَقيتَني تَحتَ العَجاجِ فَما شَقَقتَ غُباري

٢- مُتَكَنِّفي جَنبَي عُكاظَ كِلَيهِما يَدعو بِها وِلدانُهُم عَرعارِ

٣- وَهُم وَرَدوا الجِفارَ عَلى تَميمٍ وَهُم أَصحابُ يَومِ عُكاظَ إِنّي

طريف العنبري

١- أوَ كلَّمَا وردتْ عُكاظَ قبيلَةٌ بعثُوا إليَّ رسُولَهُمْ يتوَسَّمُ

مالك الهذلي

أَبَأنا بِيَومِ العَرجِ يَوماً بِمِثلِهِ غَداةَ عُكاظٍ بِالخَليطِ المُفَرِّقِ

* الأبيات الواردة في هذا الملحق يمكن التماسها في دواوين الشعراء المستشهد ببعض أبياتهم، أو غيرها من مصادر الأدب والمجموعات الشعرية الأصيلة . ولم نرد أن نوثق كل بيت من هذه الأبيات وحده، لما سيشغله التوثيق حينئذ من حيز كبير، خاصة وأن هذه الأبيات جاءت في ملحق البحث وليس في صلبه، وكان الهدف من وراء تذييله البحث مجرد إلقاء الضوء لا أكثر، فللباحث أن يقرأه للاسترشاد أو يهمله . علماً بأن بعض المصادر الأدبية التي سجلت هذه الأبيات ثابتة في قائمة المصادر والمراجع .

وهيبة بنت عبد العزي

مَتى تَردوا عكاظَ تُوافِقوها ... بِأَسماءٍ مَجادعها قِصارُ

❖ ذو المجاز :

أبو مزاحم الثمالي

أَبا جُندَبٍ وَإِذ يَقولُ خُوَيلَدٌ ... بِذاتِ المَجازِ أَدرَكَ القَومُ فَاِذهَبِ

الحارث بن حلزة

وَاِذكُرُوا حِلفَ ذي المَجازِ وَما قُ ... دِّمَ فيهِ العُهودُ وَالكُفَلاءُ

النابغة الذبياني

باتَت ثَلاثَ لَيالٍ ثُمَّ واحِدَةً ... بِذي المَجازِ تُراعي مَنزِلاً زِيَما

كادَت تُساقِطُني رَحلي وَميثَرَتي ... بِذي المَجازِ وَلَم تُحسِس بِهِ نَغَما

المخضرمون

❖ عكاظ

أبو ذؤيب الهذلي

إِذا بُنِيَ القِبابُ عَلى عُكاظٍ ... وَقامَ البَيعُ وَاِجتَمَعَ الأُلوفُ

تُواعِدُنا عُكاظَ لَنَنزِلَنهُ ... وَلَم تَعلَم إِذاً أَنّي خَليفُ

القتال الكلابي

وَأَتى عُكاظَ فَقالَ إِنّي مانِعٌ ... يا اِبنَ الوَحيدِ عُكاظَ فَاِذهَب فَاِقعُدِ

المخبل السعدي

لَيالِيَ سَعدٌ فِي عُكاظَ يَسوقُها لَهُ كُلُّ شَرقٍ مِن عُكاظَ وَمَغرِبِ

النابغة الجعدى

تُلاقي رَكيبٌ مِنكُمُ غَيرُ طائِلٍ إِذا جَمَعَتهُم مِن عُكاظَ الجَباجِبُ
وَلَقَد شَهِدتُ عُكاظَ قَبلَ مَحَلِّها فِيها وَكُنتُ أُعَدُّ مِنَ الفِتيانِ

حسان بن ثابت

سَأَنشُرُ إِن بَقيتُ لَهُ كَلاماً يُسَيَّرُ فِي المَجامِعِ مِن عُكاظِ

خداش العامرى

ضَرَبناهُم بِبَطنِ عُكاظَ حَتّى تَوَلَّوا ظالِعينَ مِنَ النِّجادِ

دريد بن الصمة

تَغَيَّبتُ عَن يَومَي عُكاظَ كِلاهُما وَإِن يَكُ يَومٌ ثالِثٌ أَتَغَيَّبُ

ضرار الفهرى

غَداةَ عُكاظٍ إِذ اِستَكمَلَت هَوازِنُ فِي كَفِّها الحاضِرِ

عامر بن الطفيل

وَيَومَ عُكاظٍ أَنتُمُ تَعلَمونَهُ شَهِدنا فَأَقدَمنا بِها الحَيَّ مُقدَما

عبد الله بن الزبعري

وَهُم يَومَ عُكاظٍ مَ نَعوا الناسَ مِنَ الهَزمِ

الحطيئة

سَما لِعُكاظٍ مِن بَعيدٍ وَأَهلِها بِأَلفَينِ حَتّى دُسنَهُم بِالسَنابِكِ

أمية بن الأسكر

قومي اللذو بعكاظٍ طيروا شرراً   من روس قومك ضرباً بالمصاقيل

عاتكة بنت عبد المطلب

بعكاظ يعشي الناظـــــريـ   نَ إذا هم لَمحـــوا شعاعـــه

كعب بن زهير

فَشَرَيْتُهُ بِأَجَمَّ أَســـوَدَ حالِكٍ   بِعُكاظَ مَوقوفاً بِمَجمَعِها ضُحا

❖ ذو المجاز:

أبو ذؤيب الهذلي

فَرَّوحَها مِن ذي المَجازِ عَشِيَّةً   يُبادِرُ أَولى السابِقاتِ إِلى الحَبلِ

النجاشي الحارثى

قَرَّ ابْنُ حَسَّانٍ بِذِي المَجَازِ

حسان بن ثابت

غَدا أَهلُ حِضنَي ذي المَجازِ بِسُحرَةٍ   وَجارُ اِبنِ حَربٍ بِالمُحَصَّبِ ما يَغدو

عمرو بن أحمر الباهلى

إِمّا الحِبالُ وَإِمّا ذو المَجـــازِ وَإِمّـ   ـا في مِنىً سَوفَ تَلقى مِنهُمُ سَبَبا

❖ مجنة :

أبو ذؤيب الهذلي

فَـوافى بهـا عُـسفانَ ثُـمَّ أَتـى بهـا   مَجَنَّــةَ تَــصفو في القِــلالِ وَلا تَغلــي

المصادر والمراجع

الأرناؤوط (معروف) :

١- سيد قريش، جـ٢ ، مطبعة فتى العرب، دمشق، ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م .

الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله) :

٢- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جـ١ ، جـ٢ ، حققه ونشره بمكة رشدي الصالح ملحس، سنة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م، دار الأندلس، بيروت، ١٣٨٥هـ -١٩٦٥م .

الأصفهاني (أبو الفرج علي بن الحسين) :

٣- الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٧م .

الأصمعي (عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي أبو سعيد)

٤- الأصمعيات ، دار المعارف، القاهرة، د . ت .

الأعشى (ميمون بن قيس) :

٥- الديوان . شرح وتحقيق د . محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤م

الأفغاني (سعيد) :

٦- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م .

الألوسي (محمود شكري) :

٧- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرحه محمد بهجة الأثري، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت .

البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) :

٨- الصحيح، متن مشكول، (حاشية السندي)، جـ٢، دار المعرفة، بيروت، د . ت .

أمين (أحمد) :

٩- عكاظ والمربد، مجلة الرسالة، عدد ١٣، القاهرة، ١٩٣٣م .

بروكلمان (كارل) :

١٠- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة : أمين فارس، منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م .

ثابت، حسان، الأنصاري :

١١- الديوان، شرحه وعلق عليه الدكتور وليد عرفات، جزءان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤ .

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) :

١٢- البيان والتبيين، مجلدان، تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، مطبعة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٥ .

حسين (د. طه) :

١٣- في الأدب الجاهلي، دار المعارف، الطبعة العاشرة، القاهرة، ١٩٦٩ م .

حسين (محمد محمد) :

١٤- أساليب الصناعة في شعر الخمر والأسفار بين الأعشى والجاهليين ، دار النهضة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٧٢ .

حمور (عرفان محمد) :

١٥- سوق عكاظ ومواسم الحج، الناشر مؤسسة الرحاب الحديثة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٠م .

الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) :

١٦- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م .

الرافعي (مصطفى صادق) :

١٧- تاريخ آداب العرب، المطبعة المصرية، د.ت .

ابن الشجري (ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني)

١٨- الأمالي، طبعة حيدر آباد، ١٣٤٩ .

الشريف (أحمد إبراهيم) :

١٩- مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول، دار الفكر العربي، د.ت .

الشنقيطي (أحمد) :

٢٠- شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، دار الأندلس، بيروت، د.ت .

الصالح (د. صبحي) :

٢١– دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، الطبعة التاسعة، بيروت، ١٩٨١م .

ضيف (د. شوقي) :

٢٢– تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) الطبعة الثانية والعشرون، دار المعارف، القاهرة، د.ت .

٢٣– تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات (الجزيرة العربية – العراق – إيران)، دار المعارف، الطبعة الثالثة، القاهرة، د . ت .

ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي) :

٢٤– العقد الفريد، حققه أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٢م .

العبيكان (طرفة عبد العزيز) :

٢٥– الحياة العلمية والاجتماعية في القرنين السابع والثامن للهجرة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م .

عزام (عبد الوهاب) :

٢٦– موقع عكاظ، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٠م .

الفاسي (أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي) :

٢٧– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، جزءان، حقق أصوله وعلق على

حواشيه لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، د . ت .

ابن قتيبة :

٢٨- المعارف، حققه وقدمه الدكتور ثروت عكاشة، الطبعة السادسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

متى (فيليب) : ومعه إدوارد جرجي، جبرائيل جبور

٢٩- تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ١٩٨٦ .

المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي الأصفهاني) :

٣٠- الأزمنة والأمكنة، طبعة دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ١٣٣٢هـ .

النابغة الجعدي :

٣١- الديوان، جمع وتحقيق د . واضح الصمد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨ .

النابغة الذبياني :

٣٢- الديوان، شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور، تونس، د . ت .

الهذلي (أبو ذؤيب) :

٣٣- ديوان الهذليين (القسم الأول شعر أبي ذؤيب)، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥م .

ابن هشام :

٣٤- السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، مكتبة التوفيقية، القاهرة، د . ت .